الصوم

مدرسة تُربيّ الروح وتقوي الإرادة

الشيخ عبدالرحمن الدوسري

حقوق الطبع محفوظة للشيخ إبراهيم الدوسري
الرياض – هاتف ٢٣١٨٥٦٦

الطبعة الأولى

١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م

يطلب من مكتبة الرشد - الرياض - طريق الحجاز

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمدلله حمد الشاكرين: والصلاة والسلام على نبينا محمد الهادي الأمين المبعوث رحمة للعالمين.. وبعد.

عندما وضع أمامي الجزء الثاني من كتاب الشيخ عبدالرحمن الدوسري الكبير (صفوة الآثار والمفاهيم) لإعادة النظر فيه قبل طبعه مرة ثانية، رأيت فيه عدة موضوعات يمكن أن تفصل وتعرض مستقلة ككتاب، وكلام الشيخ عن الصوم هو واحد من تلك الموضوعات التي بذل فيها جهده ووقته خدمة لله ودينه وعباده المؤمنين. فقد تناول الموضوع – رحمه الله – بطريقة جديدة تنطلق من الظروف التي يعيشها المسلم في وقتنا الحاضر (سفره وسكنه وعمله، والمثيرات والرغبات التي وضعت أمامه وكادت أن تسد عليه الطريق) فكانت رؤيته جريئة واعية شاملة. ولهذا كله رأيت أن يعرض هذا البحث من صفوة الآثار في كتاب مستقل لما يحمله من فائدة قد لا يجدها القارئ في الكتب الكثيرة التي وضعت في الصوم كفرض وعبادة. فجمعت الموضوع إلى بعضه وخرجت الآيات الواردة فيه، وتتبعت الأخطاء المطبعية فأعدتها للأصل، ثم جعلت لكل بحث عنواناً يناسبه حتى يبدو الموضوع ككل كتاباً متكاملاً.. وأنا إذ أقوم بهذا العمل لا فضل لي فيه فالكلام كلام الشيخ والجهد جهده، وعملي لا يعدو أن يكون من باب التنسيق للطباعة ليس إلا.

والشيخ الدوسري – رحمه الله – استفاد ولأبعد حد من الآيات والأحاديث الكثيرة التي تعالج موضوعه، ووفق في إبراز الصوم كمدرسة عليا تقوي الإرادة والعزيمة، وتغرس في أبنائها الصدق والإخلاص والدأب، وتنير في أرواحهم معاني الأخوة والمحبة والمساواة والتضامن والتكافل والتعاضد..، وفطن كذلك لإقامة علاقة جميلة رائعة بين رمضان والقرآن، وبين رمضان والدعاء، فرأى أن الله سبحانه وتعالى أنزل كتابه الكريم في شهره الكريم تعظيماً لهذا الشهر وتبريكاً، وتوقيتاً مناسباً يقبل المسلمون أثناءه على القرآن إقبالاً فاعلاً، داعمين الصيام بالقيام، والقيام بتلاوة القرآن.. والقرآن يشحذ

النفوس ويقوي العزائم ويترك الإنسان أكثر تعلقاً بخالقه وأكثر حرصاً على تنفيذ أوامره واجتناب نواهيه، وبالتالي فإنه يجعل صوم الصائم مرغباً بفعل الخير ومنفراً من فعل الشر مصداقاً لقوله تبارك وتعالى (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون). فالهدى يجلب التقوى، وفي التقوى حسن الطاعة وطيب المعاملة، والأنس، والرفق، والصدق والانضباط، وحب الخير لكل أخ مسلم، ودفع الظلم عنه حباً لله ورسوله، وصيانة للسان عن الفحش والزور والكذب والافتراء والخوض في أعراض المسلمين (من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه).

ورمضان المبارك فرصة طيبة كي يسترجع فيه المسلم أعماله كاملة خلال سنة مرت فيتأملها بعين الناقد المصلح، فيعتدل ويقوِّم نفسه ويصلح من شأنه ليقبل على الله إقبال محب مطيع، ويكون إلى جانب إخوانه مساعداً، مسامحاً، متعاوناً.. يقيل عثرة المتعثر، ويمسح جرح المكلوم.

وبهذا تصفو نفسه وتسمو روحه، ويكون أكثر قرباً من الله.. في موقف تستجاب فيه دعوته، وتزداد فرصته في العمل الصالح النافع.

رحم الله شيخنا الدوسري رحمة واسعة، وجزاه عن المسلمين أفضل ما يجازى به العبد الصالح العامل، ونفعنا بكل علم يقرب إليه ويفقه في دينه لنكون من عباده الشاكرين (الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه).

بقلم الأستاذ سعيد محمود

بكالوريوس اللغة العربية وآدابها

دبلوم الدراسات العليا في التربية

معنى الصوم

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣- ١٨٤].

الصوم في اللغة معناه الإمساك والكف عن الشيء، ومن معناه اللغوي قول مريم عليها السلام (إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً)[1].

وكقول امرؤ القيس:

(كأن الثريا علقت في مصامها...) أي كأنها ثابتة لا تنتقل.

وقوله أيضاً:

فدعها وسل النفس عنها بجسرة ذمول إذا صام النهار وهجرا

أي أبطأت الشمس عن الانتقال والسير في الظهيرة، فصارت في إبطائها كالممسكة. وكقول الشاعر:

شر الدلاء الولفة الملازمه والبكرات شرهن الصائمة

يعني التي لا تدور.

والاستشهاد على معنى الصوم اللغوي يطول ذكره، ومعناه الشرعي:

الإمساك عن الأكل والشرب والتمتع الجنسي من الفجر إلى المغرب حسب تحديد الشارع. وقد كتب الله الصيام فرضاً محتوماً في دينه القويم على المسلمين في قديم الزمان من الأمم السالفة، لأن الدين الذي جاءت به جميع رسل الله إلى أقوامهم هو الإسلام، فلذا قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ فليس إيجابه مختصاً بهذه الأمة بل هو فريضة دينية قديمة، وذلك لأهمية الصوم وسمو مكانته وعظيم منافعه الجسيمة والروحية، فهو من أقوى العبادات على تهذيب النفوس والسمو بالأرواح إذ فيه إعداد للنفوس، وتهيئة لها على تقوى الله ومراقبته، وفيه تربية لقوة الإرادة

(١) سورة مريم آية ٢٦.

على كبح جماح الشهوات، وأنانية النفوس، ليقوى صاحبها على ترك ما يضره من مألوفاته أكلاً أو شرباً أو متاعاً، فيكون قوي الإرادة في الصبر على ما حرمه الله وما يضره في بدنه أو ماله، وقوي الإرادة في الإقدام على امتثال أوامر الله التي من أعظمها حمل الرسالة المحمدية والدفع بها إلى الأمام، ساخراً بما أمامه من كل مشقة وصعوبة.

ففي الصوم خير تربية للإنسان على القوة العامة في كل شيء، وعلى فضائل الصراحة في القول والإخلاص في العمل، وعلى الجد والحزم ورباطة الجأش بقوة العزم، فهو يعلم الناس كيف يترفعون عن مظاهر الحيوانية التي غاية همها الأكل والشرب وإشباع الغريزة. يعلمهم كيف يسمون بأنفسهم إلى مستوى تغبطهم الملائكة عليه.

نعم يغبطهم عليه الذين غذاء أرواحهم ذكر الله وعبادته وحسن مراقبته، لأنه يربي في المسلمين ملكة الصبر، وقوة معنوية على قهر النفس ويعودهم احتمال الشدائد، والجلد أمام العقبات ومصاعب الأحداث ومتاعب الحياة ومكاره النفوس، فيصفي نفوسهم من علائق الشهوات وأدرانها، ويخلصها من الانهماك في متع الدنيا وزخارفها حتى لا تجعلها غاية قصدها وأكبر همها فتقصر التعليق بها وعليها والعياذ بالله.

ففي هذه التربية محو لسلطان المادة وطغيانها على النفوس حتى لا يشتد سلطانها على سلوك البشر المسلم، بل يكون السلطان الغالب في حياته للروح التي تزكيه بالفضائل الطيبة والمعنويات السامية التي يحصل بها الإخاء الإنساني والمحبة الروحية ويتحقق بها التعاون بين الأفراد والجماعات، تلك الأخلاق السامية الناتجة من التشريعات الإسلامية التي فقدتها الدول المادية فإذا هي في أمر مريج في جميع شئون حياتها، لا تقدر على التخلص منه ما دامت بعيدة عن تطبيق دين الله الصحيح مهما تلمست للخلاص في غيره.

والصوم أيضاً ينمي في النفوس رعاية الأمانة والإخلاص في العمل، ولا يراعي فيه غير وجه الله. وهذه فضيلة عظمى تقضي على رذائل المداهنة والرياء والنفاق.

والصوم يمثل ضرباً من ضروب الصبر الذي هو الثبات في القيام بالواجب في كل شأن من شؤون الحياة، وفي الانطباع به تحقيق للشخصية الحسية والمعنوية، إذ لا يكفي تحقيق الوجود الحسي دون المعنوي أبداً، إذ لا يحظى أي مجتمع بالوجود الكامل، بل لا يستحق عنوان الوجود والخلود إلا إذا نال نصيبه من الشخصيتين الحسية والمعنوية.

فحينئذ يتحقق له الكيان المرموق المرهوب. أما إذا فقد أي مجتمع شخصيته المعنوية كان فاقداً لوجوده المعنوي، وكان وجوده الحسي السليب من المعنوية ظلاً لغيره يتحرك بحركته إذا تحرك، ويسكن بسكونه إذا سكن، ولا ينطق إلا حيث يوعز إليه، وكان معطل المواهب الفكرية، لا يفكر إلا بتفكير غيره.

ولهذا كان الدين الحنيف القويم من ضروريات الإنسان، لأن القصد من الدين تزكية النفس، وتطهير القلب، واستشعار عظمة الله، والخوف من سخطه وعقابه، والرجاء في جنابه من حسن المثوبة الذي ينمي فيه روح الطاعة والامتثال وإحلال الخير والصلاح في الأرض على أساس رباط قوي متين يربط الإنسان بخالقه العليم الخبير الذي يعلم سره ونجواه.

وبما أن المؤمنين عرضة –كغيرهم بمقتضى سنة الله الكونية في خلقه – للكوارث والمحن، ومكلفون بمقتضى حكمه الشرعي بحمل الرسالة الدينية، وتحمل جميع ما يلاقيهم في سبيلها برحابة صدر وقوة ثبات، ومطالبون من الله أيضاً بالجهاد الداخلي الذي لا يتحقق إلا بمجاهدة النفس وتصبيرها على طاعة الله وعلى أقداره، وتصبيرها على الوقوف عند حدود الله في كل ورد وصدر، جعل الله التشريعات الإسلامية تربية للروح والجسد، وتزكية للضمير، ليستطيع التغلب على نفسه وشيطانه في الجهاد الداخلي، فيتأهل للجهاد الخارجي، لأن الإنسان إذا ترك على طباعه من تنازع الرغبات في نفسه وما أودع فيها من إيثار الراحة واللذة العاجلة، ولم يشد أزره بإرشاد إلهي وتعاليم روحيه يؤمن بها، ويثق بحسن نتائجها، ويطمئن إليها، عجز كاهله عن حمل أعباء الحياة، وخارت قواه، وذاب احتماله، ففقد كل استعداد لتحصيل الشخصية المعنوية، فانحرف عن المبدأ الأصيل الذي اختاره الله له من الخلافة في الأرض وحمل الأمانة التي أبت عن حملها السموات والأرض والجبال... فلهذا اختار الله لهم من شرائع دينه ما يصقل أرواحهم. ويهذب نفوسهم، ويمحص قلوبهم، وينمي فيهم القوة المعنوية على الصلاح والإصلاح.

ومن تدبر فلسفة أركان الإسلام وشعب الإيمان وجدها كلها هادفة إلى ذلك، فالنطق بالشهادتين يجعل الصادق به متعلقاً بالله، متألهاً له دون ما سواه، مخلصاً في محبة الله، لا يحب إلا ما يحبه الله، ولا يوالي أحداً إلا على مرضاة الله، يكفر بكل

طاغوت منازع لسلطان الله في الأرض بالتسلط والتشريع، ويغضب لله أشد من غضبه لنفسه وحرمه ومقدساته، ويعادي في الله أقرب قريب دون مبالاة أمام حب الله ورسوله.

والصلاة فيها معارج روحية يحصل بها للمسلم رحلات إلهية أوجبها الله عليه في كل يوم وليلة، وجعلها فيما وراء ذلك نافلة خير موضوع يقوم به المسلم كلما أراد أن يخلص فيها من دنياه ويروح قلبه ويستجم بدنه، يفرغ ويفزع فيها إلى ربه بالتكبير والمناجاة، طالباً معونته وهدايته، ملقياً فيها بنفسه في كفالة ربه الرحمن الرحيم، يتمثل بها عظمة يصغر أمامها كل عظيم في هذا الكون.

وقد كان المصطفى ﷺ يفزع إلى الصلاة كلما حزبه أمر ويقول: «يا بلال أرحنا بالصلاة». كما يقول: «وجعلت قرة عيني في الصلاة». وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ﴾[1]، فهي من أعظم الأركان وأقدم العبادات في الأكوان، إذ فيها يتجه الإنسان بكامل خضوعه نحو الله عظيم الجلال والجناب، يناجي هذا الجلال بقوله (الله أكبر) ليحصل في الإنسان قوة الوجود كله وقيمته عندئذ أن شيئاً واحداً في الوجود كله له العظمة والجلال، وما عداه تضمحل قيمته وتتضاءل. فإذا ثبتت هذه القيمة في نفس المصلي كانت نفسه نفساً مطمئنة، لأنه يستبعد من المصلي بعد أن يدرك هذه القيمة أن تميل نفسه وتخرجه عن تحصيل شيء في الوجود غير الله.

وليست النفس الأمارة بالسوء إلا تلك النفس التي تخضع الإنسان لغير الله في الوجود، وهي لا تفترق عندئذ عن الشيطان في الهدف والغاية.

فالصلاة عبادة قصد بها أن يكون المسلم صاحب اتجاه واحد في جميع مراحل حياته وما ينتابه فيها من أحوال، وعندئذ تتحقق وحدة الإنسان وبروز شخصيته وقوته المعنوية، ويرتفع عن التردد بين النفس الأمارة والنفس المطمئنة، إذ تكون نفس المصلي الصادق الخاشع نفساً مطمئنة على الدوام.

أما الزكاة فإن المزكي يسعى بها قرباناً إلى الله نحو اتجاه واحد في سلوكه، وهو اتجاه

---

(١) سورة البقرة آية ١٥٣.

المعطي المانح عن تعبد وسخاء، وبذلك يكبت الاتجاه الآخر في الإنسان، وهو اتجاه الاستيلاء والشح والطمع والجشع، وبذلك تكون الزكاة عبادة مالية وإنسانية لتحقيق وحدة الإنسان بدلاً من توزيعه وتردده بين الصفات الأخرى، وبدلاً من أن يتردى في الاتجاه الآخر الذي يحرمه السمو، ويبعده عن التشبه بصفات الله في منحة وجوده وعطائه وكرمه.

وفي عبادة الصوم امتثال لأمر الله وإقرار عملي بوجوده وبقيمته العظمى في الوجود، وفي هذه العبادة الشريفة أكثر من المنح والعطاء، لأن فيها كبت للذات الإنسان، وحرمان له من هذه اللذات طواعية وامتثال لأمر الله.

ففي الصوم خطوة أخرى في طريقة توحيد الإنسان وسعيه نحو وحدة ذاته في تحصيله النفس المطمئنة التي لا تخضع لما سوى الله وتحقق في هذه العبادة كمال الخضوع، والالتزام لحدود الله: فالصوم مقارب للصلاة في النفع، فالصلاة تبعث صاحبها على مراقبة الله حتى تطبعه بذلك، والصيام كذلك، فبتحقيقهما يكون المسلم في حذر دائم من مخالفة أحكام الله أو التقصير في حدوده وشرعه، وبذلك يكمل للروح تهذيبها وللنفس صلاحها، وللعقل إدراكه الصحيح، فيكون المجتمع سعيداً راقياً بأفراده الذين هم من هذا النوع لأن أصل جميع المحامد بضبط النفس ولذا جاء في ختام هذه الآية قوله (لعلكم تتقون)، فإن في ذلك تقريراً للحكمة الجامعة لخيري الدنيا والآخرة على اختلاف أنواعهما وهي (التقوى)، لأنها هي التي تنشأ من الإيمان بالغيب الذي يستيقظ به الضمير، وهي التي تحرس القلوب من إفساد الصوم بالمعصية، وتشحذ الذهن وتدفعه إلى التفكير في الحكم البالغة من تشريعات العليم الحكيم جل جلاله، فيلتزمها المسلم، ويرعاها حق رعايتها، فإنه إن لم يكن البشر واعين لحكمة التشريع الإلهي وثمراته في الدنيا قبل الآخرة، فإنهم لن يطبقوه على تمامه أو على وجهه الصحيح، فالله سبحانه وتعالى افتتح آيات الصيام واختتمها بما يناسبها من حكمت التشريع وما يناسب حال أمة الخلافة والرسالة في الأرض، فإن فرض الصوم أمر طبيعي بديهي الوقوع على أمة حملها الله الأمانة العظيمة، أمانة التكاليف، وحمل الرسالة المستلزمة للجهاد، لأن الصوم هو مجال تحقيق الشخصية الإنسانية المعنوية وتقرير قوة إرادتها، واستعلائها على المطالب الجسدية، وتحمل ثقل الفطام عنها بقوة عزم وصحة

وعي، كما فيه إعداد لتحقيق الجهاد الداخلي المتقدم ذكره.

ولهذا كان خطاب الله بفرضية الصيام للمؤمنين الذين هم أهل لما ذكرناه حيث قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. وفي هذه الآية فوائد عظيمة:

(**أحدهما**) أن الله نادانا بنداء الكرامة لا بنداء العلامة، وحق لمن نودي بنداء كريم ولقب شريف أن ينفتح قلبه لمن ناداه ويعتز ويلتذ ويفرح بذلك، خصوصاً إذا كان المنادى كبيراً أو عظيماً. فكيف إذا كان المنادي مالك الملك، ذا الجلال والإكرام، رب العزة والعرش المجيد، والبطش الشديد؟ فنداؤه لنا بنداء الكرامة ولقب التشريف يوجب علينا شرعاً وعقلاً حسن الالتفات وصدق الانقياد والتشرف بتنفيذ مطلبه.

(**ثانيها**) أن هذا اللقب يقتضي حصر التلقي من الله فقط، وحسن التصرف في نعمه، والقيام بواجب ذكره وشكره، وتنفيذ أحكامه، فالذين آمنوا بالله، وأشربوا حبه في قلوبهم، واطمأنوا لما نزل من الحق، هم الذين يقدسون تشريعات ربهم ويمتثلونها، رغبة في ثوابه، وخوفاً من عقابه وبطشه. ولذلك اختصهم بهذا النداء لما فيه من قابلية الطاعة والتنفيذ.

(**ثالثها**) أن المؤمنين حقاً هم جنود الله من البشر وحزبه الحامل لرسالته، الحافظ لحدوده، وهم الذين يفرض عليهم الجهاد لإعلاء كلمته، وقمع المفتري عليه، والقيام بتقرير منهجه في الأرض والقوامة به على البشرية، وبحسن قيامهم بذلك يمتد أمد الرسالة المحمدية التي يحصل بها قيام الحجة لله على الناس مدى الدهر، وبها يكونون شهداء على الناس إذا حققوا خيريتهم التي هيأهم الله لها، فلذلك فرض عليهم الصوم لتزكية نفوسهم وتمحيص إيمانهم وتقوية إرادتهم على حمل أعباء الرسالة، إذ في الصيام مجال عظيم لتقوية الإرادة العازمة الجازمة الصارمة. ومجال آخر هو اتصال الصائم بربه اتصال طاعة وانقياد يتحقق فيه كمال القيام بالأمان والإخلاص، كما سنفصل ذلك مع مزيد من الفوائد إن شاء الله.

(**رابعها**) تشبيه الفرضية بالفرضية من الله سبحانه في إخباره أنه كتب الصيام علينا كما كتبه على الذين من قبلنا، ففي هذا إشادة بأهميته وتوطين لنفوس المؤمنين على

ثقل تلك العبادة التي فيها حبس النفس عن شهواتها ومألوفاتها وتحمل المشقة في ترك ذلك. وقد قال بعض الحكماء: (إن التكاليف إذا عمت سهلت).

(**خامسها**) قوله تعالى: (لعلكم تتقون) فيه تعليل لفرضية الصيام ببيان فائدته الكبرى وحكمته التي يتفرع عنها كل خير وبركة، وهو أنه يعد نفس الصائم لتقوى الله بترك شهواته الطبيعية الميسورة التناول عليه والعزيزة إليه بحيث لولا تقوى الله وحسن مراقبته لما تركها، ولو كان تركها بأنفس الأثمان، ولكن تقوى الله تعالى جعلته يرعى أمانة الله في حال خفائه عن الناس واختلائه بنفسه. وبذلك تتقوى إرادته على ترك ما حرمه الله أو كرهه، وعلى اجتناب ما يضره من مألوفاته التي ابتلى بها، وعلى الصبر في البأساء والضراء وحين اشتداد الحرب كما سنوضحه، وهذا معنى دلالة (لعل) الدالة على الترجي، لأن الرجاء لا يكون إلا فيما وقعت أسبابه، وموضعه في هذه الآية المخاطبون بها إذا امتثلوا بصدق عزيمة وحسن نية واستقبال فمن لم يكن كذلك لا ترجى فيه هذه الملكة للتقوى.

وقد كان الوثنيون يصومون إذا تلوثوا بالمعاصي لتسكين غضب آلهتهم فيما يزعمون، أو لإرضائها واستمالتها لقضاء حوائجهم، لاعتقادهم الفاسد بأن إرضاءهم والتزلف إليهم يكون بتعذيب النفس وحبسها عن شهواتها وقتاً ما، فلما كان هذا شائعاً في مجتمعات الضلال والوثنية جاء القرآن يعلمنا أن الصوم ونحوه من العبادات ليس لتعذيب النفس ولا لشيء من هذه الخرافات، وإنما هو لإعداد المؤمنين للسعادة والتقوى وتربيتهم على تحمل الشدائد بحبس النفس على المكروه والأخذ بجميع وسائل الوقاية التي يحصلون بها على الأمن الصحيح والعيشة الراضية السليمة في الدنيا والآخرة.

فأول آية في حكم الصيام تقرر فيها الحكمة الجامعة للخير في الدارين على اختلاف أنواعه، وهي التقوى، لأنها هي التي تنشأ من الإيمان بالغيب الذي يستيقظ به الضمير، وهي التي تحرس القلوب من إفساد الصوم بالمعصية وتشحذ الذهن وتدفعه إلى التفكر في الحكم البالغة من تشريعات العليم الحكيم جل جلاله، فيلتزم المسلم ويرعاها حق رعايتها، فإنه إن لم يكن البشر واعين لحكمة التشريع الإلهي وثمراته في

الدنيا قبل الآخرة، فإنهم لا يطبقونه على تمامه أو على وجهه الصحيح.

وسر ختام آية الصيام بالتقوى أن إعداد نفوس الصائمين لتقوى الله يظهر من وجوه كثيرة أعظمها شأناً وأظهرها أثراً وأعلاها شرفاً أن الصيام أمره موكول إلى نفس الصائم وضميره، لا رقيب عليه فيه إلا الله، فهو سر بين العبد وربه لا يطلع عليه أحد سواه، لأنه يستطيع أن يفطر سراً مختفياً عن أقرب قريب، ولكنه لتقوى الله يلتزم الأمانة في حفظ الصيام مهما سنح له ما يشتهي أو يغرى. فمواصلة ذلك شهراً كاملاً عن تقوى ومراقبة وحياء من الله يصاحبه في هذه المدة، يحصل بها نزاهة الضمير، وضبط النفس وإعدادها لما يؤهلها للخير، وتحمل الأذى في سبيل الله، ويقوي عزيمتها في كل إقدام وإحجام، ويتقوى أيضاً بصومه الصحيح على كبح جماح شهوته ونزوات نفسه.

الصوم تربية ومدرسة

فالصيام من أعظم العون على محاربة الهوى وقمع الشهوات وتزكية النفس وإيقافها عند حدود الله، فيحبس لسانه عن اللغو والسباب والانطلاق في أعراض الناس، والسعي بينهم بالغيبة والنميمة المفسدة. كما يردعه عن الغش والخداع والتطفيف والمكر وارتكاب الفواحش، وأخذ الربا أو الرشا، وأكل أموال الناس بالباطل بأي نوع من الاحتيال. ويجعل المسلم يسارع في فعل الخيرات من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة على وجهها الصحيح وجهاتها المشروعة، ويجتهد في بذل الصدقات وفعل المشاريع النافعة، ويحرص على تحصيل لقمة العيش من الوجه الحلال، ويحذر من اقتراف الإثم والفواحش، فضلاً عن الاسترسال بها. وإذا نسي أو غلبته نفسه على فعل معصية ذكر الله سريعاً فأناب إليه واستغفر وتاب مما أصاب، لما غرس فيه صوم هذا الشهر المبارك من مراقبة الله وخشيته، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾[1].

ولذا وجب على الصائم أن يتحفظ أكثر ما ينبغي أن يتحفظ، فقد قال رسول الله ﷺ: (من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه). فالصيام يا عباد الله تهذيب لا تعذيب، فإذا لم يؤت ثمرته النافعة فليس النقص منه إنما النقص من سوء تصرف الصائم وعدم صحة قلبه وطهارة ضميره وعدم حسن تفكيره.

ومن هنا وجب أن يكون الصوم عن إيمان واحتساب وضبط وتعظيم لشعائر الله، لا عن تقليد ومسايرة، كصوم من يصوم بتوجع وتحسر، ويقتل أوقاته بالنوم والبطالة، وهو في الحقيقة قاتل لنفسه قتلاً معنوياً، ويتمنى سرعة انقضاء رمضان كأنه ليس محسوباً من عمره أو ليس فيه زيادة من أجره والعياذ بالله.

فأين حاله من حال النبي ﷺ والسلف الصالح الذين يصومون أياماً من الأسبوع أو أياماً من كل شهر تطوعاً لله، يهذبون بها أنفسهم، ويتدربون فيها على حمل أعباء الرسالة وتحقيق الحياة الطيبة؟

فأين هو من الاقتداء بهم واللحوق بركبهم الشريف الذي طهر مشارق الأرض

---

(١) سورة الأعراف، آية ٢٠١.

ومغاربها من الكفر والظلم وعمرها بالدين الصحيح والعدالة والخير والأمن والصلاح؟ أم يريد أن يلحق بالركب المادي الحاضر الذي طبعه الاستعمار بأوضار ثقافته الكافرة الفاجرة فيلحق في حزب الشيطان؟

أعاذ الله المسلمين من عاقبة السوء.

وهذا النوع من صيام بعض الناس الذين يصومون رمضان بتوجع وتحسر وسوء استقبال، ويتمنون سرعة انقضائه، قد أورثهم هذا الصيام حرجاً في نفوسهم وضيقاً في صدورهم، فتجدهم حمقى، سريعي السخط، يغضبون لأدنى سبب. وقد اشتهر هذا بينهم حتى صار كاعتقاد طبيعي للصوم بحيث إذا فحش أحدهم بالكلام وتمادى في الغضب على مقابله قال بعض السامعين – لا تعتب عليه فإنه صائم –كأن الصائم يمن على الله وعلى خلقه بصيامه، فلا يتحمل منهم كلاماً ولا مفاوضة.

والصائم بإيمان واحتساب وخشية ومراقبة وتعظيم ومحبة لله يجب أن يكون بخلاف ذلك، فيكون راضياً مرضياً، مطمئن النفس، منشرح الصدر، مسروراً ملتذاً، شاكراً لله الذي فسح في عمره حتى بلغه صيام هذا الشهر ولم يجعله من أصحاب القبور، فلا يكون في نفسه اضطراب ولا انزعاج ولا ضيق ولا حرج أبداً، بل يكون أوسع أفقاً، وأشرح صدراً، وأطيب نفساً، وأهدأ أعصاباً، وأقوى روحاً، فيكون على أحسن خلق في معاملته ومقابلته وحلمه ومفاوضته، وإذا ابتلى بخصم من الحمقى لم يجاره في حمقه وسفاهته، بل يقل له ثلاث مرات – إني صائم –كما أرشد لذلك الصادق المصدوق ﷺ.

هكذا يجب أن تكون آثار الصيام الصحيح، بحيث لو أثر على جسمه بشيء من الفتور على عقله وروحه الطيبة المستنيرة بنور الله، بل يجب أن تكون روحه ومعنويته أحسن وأقوى من حاله في الإفطار، وذلك شكراً لله تعالى، ليحصل على بركة الصيام حسياً ومعنوياً بطيب نفسه وخلقه فتتضاعف أجوره من ربه.

فالغاية الكبرى من الصيام هي التقوى بجميع معانيها ومبانيها، إذ هي في اللغة مشتقة من (التوقي) وأخذ الوقاية. ففي الصوم يتوقى المؤمن من المعاصي والآثام، فيأخذ لنفسه وقاية من عذاب الله وموجبات سخطه.

وفي الصوم يعظم إحساسه وتقوى عزيمته على حمل رسالته والقيام بواجب وظيفة

الله في أخذ القرآن بقوة والدفع به وبرسالة النبي إلى الأمام ليصلح بهما ما أفسده المبطلون في مشارق الأرض ومغاربها، وينقذ الناس من الظلم والاستعباد والتهتك والانحلال، فيستعد لأجل ذلك لأخذ القوة وتسخير كل دابة ومادة على وجه الأرض أو في جوفها أو أجوائها، ليتقوى بذلك على ردع من يقف في وجهه ويحول دونه ودون رسالته، فيكون آخذاً بأسباب الوقاية التي تقيه من غضب الله وعذابه بسبب إجرامه أو تفريطه في واجبه أمام الله مندفعاً بما يكسبه الصوم إياه من قوة الإرادة وطهارة الروح.

والمؤمنون الذين خاطبهم الله في القرآن يعلمون مكان التقوى عند الله ووزنها في ميزانه وقوة تأثيرها وحسن نتائجها في أعمالهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، مما يحصلون به على السعادة الصحيحة والحياة الطيبة في الدارين، فهي غاية تتطلع إليها أرواحهم فتندفع إليها بقوة.

وهذا الصوم أكبر حافز لتحصيلها، وخير أداة من أدواتها، وأحسن طريق موصل إليها ومن ثم يرفعها سياق القرآن في ختام الآية لفرضية الصيام أمام عيونهم وقلوبهم هدفاً وضاءاً ينهجون إليه عن طريق الصيام، فيكسبهم التوبة عما اقترفوه من الذنوب قبله، ويكسبهم الجد والنشاط في القيام بوظيفة الله التي يتشرفون بها وينجون، ولذا وصف الرسول ﷺ الصيام بأعظم وصف، إذ يقول: (الصيام جنة) بضم الجيم، أي ستر ووقاية يقي صاحبه من المعاصي ومن جميع المزالق التي يتردى بها في حياته بانهماكه في الملذات أو قنوعه بالعيشة البهيمية دون التفات إلى وظيفته.

وورد في الحديث زيادة عند الإمام أحمد: (الصوم جنة ما لم يخرقها) أي يخرقها بشيء من أعمال الإثم وسوء النية أو سوء الاستقبال له وعدم الانشراح به، أو يخرقها بسوء الفهم وعدم مراقبة الله، فيكون صيامه كتقليد موروث لا ينتفع به ولا يتأثر في أي ناحية من نواحي سلوكه، فيكون قد خرق الحكمة الناشئة من الصوم الصحيح، فإن جنة الصيام تنخرق بالإصرار على المعاصي وبالعزم على العودة إليها بعد رمضان، وبالتفريط في جنب الله ونبذ كتابه واطراح رسالته ولو خارج رمضان، فإن المقصود من فريضة الصيام توجيه الأمة إلى رب رمضان في جميع الأزمان لا مجرد عبادته في رمضان، ولذلك كان من لم ينتفع فيه محروماً راغماً أنفه والعياذ بالله، لأن الصوم جنة ووقاية عن

أدواء الروح والقلب والبدن، وله تأثير عجيب في حفظ الجوارح الظاهرة والقوى الباطنة، فهو لجام المتقين وجُنة المحاربين لأعدائهم من شياطين الجن والإنس.

والصوم أيضاً رياض للأبرار المتقين للتدرب على وظيفتهم بخلافة الله في الأرض، وهو رحمة عظيمة النفع للبدن والروح جميعاً وفيه مقصد شريف مهم أيضاً، وهو اجتماع القلب والهمم على الله، وتوفير قوى النفس على محبته وطاعته والجهاد في سبيله لتكون كلمته هي العليا وكلمة الكفار السفلى مهما تنوعت بألقابها وشعاراتها.

وفي الصوم من الفوائد الاجتماعية للمساواة في الحكم فيه بين الأغنياء والفقراء والحكام والسوقة (هذا من جهة) ومن جهة أخرى إعداد الصائمين لتقوى الله فيما بينهم بأن يتفقد بعضهم بعضاً، حيث تساوون في الجوع، فتذهب غفلة الشبعان عن الجائع، ويتذكر الموسر حال المعسرين، ويتقي الله فيما يسأله عنهم من الأرحام، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾[1]، فيحملهم التذكر على الرأفة والرحمة الداعيتين إلى البذل والصدقة، لاسيما مع رقة القلب والاجتماع على سماع المواعظ والرغبة في مزيد الأجر والثواب مما ينتعش به المجتمع ويزول بؤسه. ومنها تعليم الأمة النظام في المعيشة، إذ جميع الصائمين يفطرون في وقت واحد بلا تقديم ولا تأخير.

ثم إن في الصوم صحة عظيمة بجميع معانيها، صحة بدنية حسية وصحة روحية معنوية. فالصحة البدنية في كونه يفنى بعض المواد الراسبة في البدن، ولاسيما أبدان المترفين أولي النعمة والنهمة والتخم وقليلي العمل والتعب، فقد قال علماء الطب إنه يحفظ الرطوبات الطارئة، ويطهر الأمعاء من فساد الدؤب والسموم التي تحدثها البطنة، ويحول دون كثرة الشحم في الجوف، وهي شديدة الخطر على القلب، فهو كتضمير الخيل الذي يزيدها قوة على الكر والفر.

ونقل صاحب المنار رحمه الله عن بعض أطباء الإفرنج أنه قال: (صيام شهر في السنة يذيب الفضلات الميتة في البدن مدة سنة).

وأما الصحة المعنوية الروحية فهي ما قدمناه، وما سنذكره أيضاً من فوائد الصيام

---

(١) سورة النساء آية: ١.

في نفوس الصائمين، وتوجيههم إلى الله القوي المحبة والتعظيم وحسن المراقبة ومعرفة الصائم وظيفته لعلام الغيوب، وإعدادهم للأخذ بجميع وسائل التقوى التي تقيهم من الخزي والذل والخسران في الحياة الدنيا، ومن عذاب الخزي في الدار الأخرى، فتصح قلوبهم وتشفى من مرض الشبهات ومرض الشهوات الذي ابتلى به أهل الأرض، وذهب بأمن حياتهم وراحتهم، وأفقدهم الوحدة الصحيحة الروحية، وصدق النبي ﷺ إذ يقول: (صوموا تصحوا).

ففي الصوم صحة القلوب والأرواح وصحة الأدمغة الذي يحصل به حسن التفكير في كينونة الإنسان التي لا يملك مجاوزتها في هذه الأرض ومعرفة مركزه فيها ووظيفته لرب العالمين، وأنه إذا لم يستق المعلومات من ربه، ويستلهم الهداية من وحيه، ويقوم بتنفيذ حكمه وتشريعه، فقد تنكر لنعمته وإحسانه، وكفر به كفراً عملياً بدل الشكر الواجب عليه، وانسلخ من شرف جندية مولاه العزيز الرحيم إلى مخلوق مثله، يشغله بمذاهب وأنظمة مصطنعة مضطربة يضل بها عن سواء السبيل، ويسعى بإضلال غيره أيضاً ثم يشقى بها فترة من الزمن، ويشقى غيره بتطبيقها عليه، ثم ينتقل إلى غيرها مما تتنوع بها ضلالته، وتزداد شقاوته، ومن يدور معه في فلكه، فتكون حياته شراً عليه وعلى غيره، ثم بعد مماته يكون ممن يحملون أوزارهم كاملة يوم القيامة، وأوزار الذين يضلونهم بغير علم.

هكذا يتفطن الصائم فيصح تفكيره من تأثير الصيام الصحيح، فيستنير بنور الله، ويستجيب لنداءاته جل وعلا، ويحقق طاعته له، رافضاً الاستجابة لغيره أو طاعة سواه من ملاحدة الشرق والغرب الذين يدعون الفلسفة المتناقضة (ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون)[1] ثم بصحة تفكيره وسلامة ضميره يصفو قلبه من الصدأ، وينصقل من رين الذنوب، لمراقبته الله وإنابته إليه، فلا يعود بعد رمضان إلى غفلته السابقة أو أعماله التي فيها شرود عن الله وإضاعة لأوقات عمره النفيسة فيما يحرمه حظوظه الغالية من الله، بل يخرج من صيامه بإنسانية جديدة تحمل القوة المعنوية والطموح الصحيح والشموخ برأسه إلى استلام القيادة العالمية التي هيأه الله لانتزاعها من

(١) سورة المائدة، آية: ٥٠.

اليهود العابثين بمقدرات أهل الأرض، ويربأ بنفسه من عار التقليد والتبعية التي ابتلي بها كثير من العصريين المتشدقين بمسايرة الركب والتطور، معلنين على أنفسهم بتبعية المسايرة، والله يوجب على المسلم أن يسير بالناس على صراطه المستقيم بضوء وحيه الذي ورثه من نبيه محمد ﷺ لا أن يكون مسايراً للناس، منضبعاً بعلومهم المادية ومنصبغاً بفلسفتهم الإلحادية، فإن من كان على هذه الحالة بعد شهر رمضان لم ينتفع بصيامه، وكان كالبهيمة المحبوسة عن الطعام والشراب وقتاً معيناً، وبعدم انتفاعه بتشريعات الله، يكون مزعزع الكيان أو فاقد له بالكلية، ويكون ذنباً تابعاً، لا رأساً متبوعاً. ومهما ادعى لنفسه التحرر والتقدمية فهو مستعبد معنوياً وفكرياً، ومتأخر حقيقة، ولكنه يخادع نفسه ويخدع المصغي له ممن تشبه ببني إسرائيل، فكان سماعاً للكذب والعياذ بالله.

وتقوية الإرادة في النفوس ليس بالأمر الهين، فقد عمل رجال الاجتماع وأصحاب التنظيم العسكريين على تقويتها في المجتمع هذا الزمان، وقد سبقهم الدين الإسلامي على ذلك بأربعة عشر قرناً. وما أحوج المسلم خاصة أن يكون قوي الإرادة، صادق العزيمة، ولذا أمره الله بتحمل المشاق في الحج، والصبر على فراق الأهل والأحباب، وتعطيل المصالح الدنيوية أو بعضها، والمسير إلى بلد لا يبلغها أحد إلا بشق الأنفس، ومكابدة ألم الجوع والعطش في الصيام، وقوة الصبر عن مألوفاته التي اعتادها حال الصيام، احتساباً لله، ووفاء بأمانة الصوم الذي أضافه الله إليه، مما يجعل المؤمن قوي الإرادة في تحقيق ذلك، بحيث لو دفع له شيء من المال على ترك مألوفاته لم يقبل، ولكن يتركها حال صومه لله رب العالمين.

فجدير بالصائم أن لا يفعل بعد إفطاره ما يخل بهذه القوة أو يوهنها أو يقلل من شأنها، فيهدم في ليله ما بناه في نهاره من قوة الإرادة التي صبر بسببها عن محبوباته ومألوفاته. فما أحزمه لو استغل شهر الصيام كمدرسة يتدرب بها على هجر ما يكرهه هو، أو يكرهه الشارع من مألوفاته التي اعتاد أكلها أو شربها أو مقاربتها. تالله ما أحزمه لو واصل هذه الحمية عن ذلك بالليل كما عملها في النهار. وإن هو عكس الأمر وأخذ يتأفف على ما حرمه منه الصيام، ويتلهف لساعة الإفطار للإسراع إلى تناول مألوفاته المضرة بنهمة، فقد ضيع الحزم والعزم وبرهن على خوره وضعف نفسه

وانعدام يقينه وقلة صبره وانحلال معنويته وانعدام عزيمته وبشاعة هزيمته، وأنه لا يزال فاقد الإرادة، مغلوباً على أمره داخلياً، لم يستفد من صيامه، ولم ينجح من مدرسته التدريبية بشيء، فلم يكتسب المرونة المطلوبة من فرضية الصيام إذ لم يحمل نفسه على الصبر المتواصل، فهو وإن كان مثاباً من جهة صيامه الساعات المحدودة إلا أنه لم ينتفع من الناحية النفسية والاجتماعية.

إذ هو بضعف إرادته التي جرته إلى الإقبال على مألوفاته بجشع ونهمة قد هدم في ليله ما بناه صومه في نهاره، وأثبت أن صيامه مجرد روحانية خاصة قاسرة.

نعم إن من يقبل حين إفطاره على مألوفاته الخسيسة من دخان أو حشيشة أو قات ونحوه من المفترات أو المخدرات، فقد برهن على ضعف إرادته وانهزامه النفسي الذي هدم به في ليله ما بناه صيامه في نهاره، وأثبت أن صيامه صياماً تقليدياً يشوبه التوجع والتأفف على عدم تناول مألوفاته، وأن صبره ليس منبثقاً عن قوة نفسية وصدق عزيمة، وإنما جاء قسراً من ضغط البيئة أو من الخضوع الديني الذي أجبره على احترام شهر رمضان في ساعات محدودة لا يتعداها صبره عن تناول مألوفه الذي هو مكروه في الشرع، مستقبح في الطبع، ضار في الوضع لقلبه أو عقله أو بدنه أو ماله، أو مضيق لمعيشة عياله، فلم يخرج من ذلك الصوم بمرونة وتهذيب للنفس يكتسب به قوة الإرادة التي يجب أن يظفر بها الصائم صياماً حقيقياً كاملاً يحبه الله وتظهر نتائجه في تقوية معنوية فاعلة من كل ناحية، كما هي الحكمة العظمى من حكم الصوم التي أخذ علماء التربية والاجتماع الآن يعملون على تقويتها في النفوس بشتى الوسائل، كما يذكر عن اهتمام (ألمانيا) بتقوية الإرادة.

ونحن أغنياء بتشريعات ديننا القويم الذي وضعه لنا العليم الحكيم جل شأنه، فلسنا بحاجة إلى التطفل على غيرنا في التربية، إذ تربية أولئك مبنية على المادة الصرفة التي تقلق راحة الإنسان وتزيد من جموحه إلى الشر بسببها.

وتربية الشارع الحكيم جمعت بين الروح والمادة بميزان تغلب فيه الروح وترجح، فتسيطر على مشاعره من الجماح والانحراف. فالمسلم بحمد الله على بينة من أمره وحكم عليا في دينه الذي يتلوه شاهد منه لا يحتاج معه إلى الاستشهاد بغيره، وإنما يحتاج إلى التطبيق وأخذ ما أنزل إليه بقوة.

ومن لم يتأثر بما يقوله وما يعمله من أركان الإسلام وشعائره تأثراً روحياً ومعنوياً تنسبك به أخلاقه وطبائعه، فليس جديراً بحمل رسالته العظيمة التي أوجب الله عليه حملها في جميع نواحي الأرض ليصلح بها ما أفسد الناس ويكون مصدر العزة والحكمة ومنبع الخير والرحمة كما هيأه الله بما شرع في دينه لذلك.

والمسلمون ما قست قلوبهم وتقاعسوا عن واجبهم فكانوا عرضة لغزو أعدائهم سياسياً وثقافياً إلا بسبب عدم تأثرهم بما يكررون قوله وفعله من أركان الإسلام وشعائره مما أصبح والعياذ بالله (كطقوس روتينية) بحيث غلبهم أصحاب المبادئ الوثنية والمذاهب المادية الجديدة التي يتفانون في نشرها وتركيزها بكل حماس وتضحية حتى كسبوا أولاد المسلمين كسباً رخيصاً، بل اختطفوا عقول الكثيرين من آبائهم أيضاً.

ولو أنهم تأثروا بما يقولونه ويفعلونه تأثراً صحيحاً لأجج في قلوبهم نار الغيرة لله والانتصار لما أنزله عليهم من الحق محبة صحيحة له ولرسوله، فحلموا رسالتهم القومية العظيمة الخالدة، ودفعوا بها إلى الأمام، ودفعوا الباطل بسيوف الحق الدامغة، فلم يسمحوا له بالانتشار، ولم يوجدوا له فراغاً ينفذ منه، بل شغلوا الفراغ بالحق بدلاً من أن يشغله غيرهم بالباطل، ووقفوا سداً منيعاً أمام كل تيار بحيث يدفعونه حتى يتلاشى، كما دفعه أسلافهم الصالحون الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

فالدين الإسلامي دين حيوي يجمع تشريعاته القولية والفعلية والاعتقادية.

فكل شعيرة منه تعمر الضمير وتزيد في تقوى الله ومحبته وتعظيمه، وتحمل صاحبها على التفاني في نصرة دينه اقتداء برسوله عليه الصلاة والسلام.

وما انطفأت نار الغيرة والحب إلا بسبب عدم التأثر المطلوب، لأن المسلم في هذا الزمان ويا للأسف أصبح عنده ذكر الله وتلاوة كتابه لا يتجاوزان الحنجرة، وكذلك الصلاة يصليها بجسمه لا بقلبه. والصيام يؤديه كعادة رسمية يحترمها مع التضجر على ما يمتنع منه والتلهف على سرعة تناوله.

فلا الذكر والقرآن يورثان المحبة والتعظيم والتدبر والتفكر. ولا الصلاة تورث الإخبات والإنابة لخلوها من الخشوع ولا الصوم يورثه قوة الإرادة ورباطة الجأش وصدق العزيمة.

والواجب أن تستقيم أموره كما يحب الله منه ويوجبه عليه، فيطمئن قلبه بذكر الله،

وينيب إليه، ويخشع بتمام مراقبته لله، وبالإجلال والتعظيم له في الصلاة ينتهي عن الفحشاء والمنكر، وأن تتوفر فيه جميع حكم الصيام وغيره لتؤتي كل شعيرة ثمرتها المقصودة من شرعيتها، فيكون عبداً شكوراً قائماً بوظيفته لربه في الحياة، مجاهداً في الله حق جهاده، لينال ما وعده الله به من العز والنصر والتمكين والنجاة من الشرور (فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم)[1]. فالصوم الصحيح يبقى في قلب صاحبه من الصحة والشفاء الروحي ما يقيه من الأمراض المعنوية، كما أنه يتأثر بالصلاة الخاشعة وقراءة القرآن بالتدبر حال صيامه مما تعرج به روحه إلى مولاه عروجاً معنوياً يكسبه الاستقامة على طاعته، والقيام بحسن المعاملة للخالق والمخلوق، ويرهف إحساسه نحو رسالته، فيتفانى في حملها ويبذل النفس والنفيس في سبيلها قياماً بحق الله، وبسلامة قلبه من الأمراض المعنوية وصلاح أعماله يكون قدوة صالحة بين الأنام، فيحصل لدعوته القبول التام لما يرون فيه من الأسوة الحسنة، فهكذا يوجب الله على المسلمين أن يكونوا في الأرض لتعمر بهم عمارة روحية ومعنوية.

فصلى الله عليك من رسول أوتيت جوامع الكلم. تالله إن كلماته القصيرة الحكيمة في هذين الحديثين الشريفين: (الصوم جنة ما لم يخرقها)، و (صوموا تصحوا) لو تكلم بهما بعض ما يسمى بالفلاسفة أو بعض أطباء الغرب في هذا الزمان الموبوءة فيه أوضاع أهله، لطفحت بهما الصحف بالعناوين الضخمة ووجدوا رواجاً عظيماً عند الماديين الذين رفضوا الروحانيات وأصبحوا لا يتلقون الهداية من مشكاة النبوة، بل يتلقون أقوال هذا وذاك ممن (ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا)[2].

والمؤمن الصحيح يجب عليه أن يحصر التلقي للنور والهداية على وحي الله من كتاب وسنة، ويجعلهما الميزان الصحيح لكل ما يرد عليه، وأن يقدر رسول الله ﷺ كأنه حاضر عنده لا يغيب عنه، ويلاحظ اطلاع الله عليه أيضاً، فيتمسك بوحيه الذي هو حبله المتين، أي عهده المتين، ويقتدي بنبيه عليه الصلاة والسلام قولاً

---

(١) سورة محمد، آية: ٢١.

(٢) سورة الكهف، آية: ١٠٤.

وعملاً، لتكون حياته امتداداً لحياته الطاهرة، وإن لم يكن كذلك فإن حياته صورة لغيره والعياذ بالله.

إن الإله العليم الحكيم الذي جعل الصيام ركناً من أركان الإسلام ومبانيه، ودعامة عظيمة من دعائمه، شرعه لتحقيق إنسانيتنا والارتفاع بها عن مستوى البهائم. ذلك أن الإنسان ليس هو هذه الجثة القائمة بهيكلها المنتصب فقط إلا إذا فقد الروح السماوية التي يمده الله بها. فإذا فقدها كان بمجرد هيكله مشابهاً للحيوان، بل يكون أشر وأضر منه، ولكن الله يمده بروح من عنده فيما يشرعه له من العبادات المتنوعة المزكية لنفسه والمصلحة لأحواله وشؤونه كلها.

فالإنسان جسد سفلي وروح علوي، فلجسده مطالب من جنس علله السفلي، ولروحه مطالب علوية من جنسها. فإذا أخضع روحه لمطالب جسده وحكم غريزته الحيوانية فقد استحكمت بهيميته على عقله وروحه وانقلب من مالك مدبر إلى حيوان مسير يسيره الهوى المخالف لوحي الله، وقد يتشيطن بابتعاده عن أوامر ربه فيكون شيطاناً رجيماً من جن إبليس الذين يكسبهم كسباً رخيصاً.

أما إذا عرف قيمة نفسه وأدرك سر الله فيه، وحكم جانب الروح حتى يخضع جسده لها، فتغلب روحه على نزعات جسده، ويصفو قلبه من همزات الشياطين، وينشغل بحب ربه والاتجاه إليه، فإنه يكون ذلك الإنسان الكامل العاقل المفكر المتطلع إلى ملكوت السماء، والمترفع على الدنايا، والشامخ إلى استلام زمام قيادة الله في أرضه، وحسن التصرف فيما استخلفه فيها.

ومن هنا فرض الله الصيام ليتحرر الإنسان من سلطان أهوائه وغرائزه البهيمية وينطلق من سجنها ظافراً متغلباً عليها.

وعلى العموم فإن شهر رمضان مدرسة تربية رحمانية يتدرب بها المسلم المؤمن على تقوية الإرادة في الوقوف عند حدود ربه في كل شيء، والتسليم لحكمه في كل شيء، وتنفيذ أوامره وشريعته في كل شيء، وترك ما يضره في دينه أو دنياه أو بدنه من كل شيء، ليضبط جوارحه وأحاسيسه جميعاً عن كل ما لا ينبغي بتدربه الكامل في هذا الشهر المبارك، ليحصل على تقوى الله في كل وقت وحين، وفي أي حال ومكان، وذلك إذا اجتهد على التحفظ في هذه المدرسة الرحمانية بمواصلة الليل مع النهار على

ترك كل إثم وقبيح، وضبط جوارحه كلها عما لا يجوز فعله، ومواصلة هجران ما ابتلي به بعد الإفطار، كما قبله لينجح من هذه المدرسة حقاً، ويخرج ظافراً من جهاده لنفسه، موفراً مواهبه الإنسانية وطاقاته المادية والمعنوية لجهاد أعدائه.

فعليه أن يغتنم هذه المدرسة بصدق العزيمة والنشاط وحسن مراقبة الله حتى لا يكون من الراسبين المغبونين. عليه أن يمسك لسانه عن أنواع البذاء وفضول الكلام، كما أمسك فمه عن الطعام والشراب، وأن يواصل إمساكه بالليل عن ذلك، فلا ينطق إلا بالحض على الخير والأمر بالمعروف والكلمات النافعة البناءة الصالحة المصلحة، وأن يشغله بالذكر والتلاوة والندوات الطيبة المشتملة على ذلك، فإن من أمسك عن الطعام ولم يمسك لسانه عن الهمز واللمز وأنواع البذاءة، فقد أحبط أجر صيامه من جهة، ورفض التعلم في مدرسة الله من جهة أخرى، ومن أمسك لسانه بالنهار وأطلقه بالليل فقد أفطر على الحرام، ولم يواصل التعلم والتدريب في مدرسة الله، ولابد له من السقوط، فليحذر من ذلك.

ومن كان مبتلى بالطمع والجشع يغبن الناس في المعاملة بالأيمان الكاذبة، ويغشهم بأنواع التدليس أو يطفف عليهم في وزن أو كيل أو ذرع، فليحذر من فساد صومه بالإفطار على الحرام، وليحسن معاملته قولاً وفعلاً، ليتدرب على الصدق والنصح خارج رمضان، فيكون ممن تزود فيه التقوى، والتقوى خير زاد. فإن لم يكن كذلك بأن استمر على غشه وسوء معاملته حال الصيام، أو توقف عنها ثم رجع إليها بعد صيامه، فهو الرافض لمدرسة الله والساقط من تدريبها، فهو متعرض لإبعاد الله ومقته، محروم من مغفرته في هذا الموسم الكريم.

ومن كان مبتلى بالشهوات والطمع في أعراض الناس، فشهر الصيام خير مدرسة له، تزجره عن ذلك إذا عقل حكم الله، وتدبر حكمته، وحرص على إصلاح صومه وتحصيل ثوابه. ففيه يتدرب على غض البصر وكف الجوارح إذا كان في الليل معرضاً عن ذلك بقلبه وقالبه، ويجب عليه إشغال قلبه بالتفكر في آيات الله وتذكر نعم الله عليه نعمة نعمة، ويحاسب نفسه على شكرها بحسن التصرف فيها، ويجعل قلبه سايحاً في ذلك، كي لا ينشغل بذكر محبوباته ومعشوقاته، فيكون متعلقاً بها متلهفاً على حصولها والوصول إليها، فيحدوه ذلك على العزم على مقاربة الفواحش بعد رمضان.

وعقد العزم والإصرار هما من موجبات الإثم ومحبطات الأجر، ومن كان هكذا فإنه لاشك ساقط من مدرسة الرحمن وغير منتفع بصيام رمضان، فكيف بمن اقترف المعاصي فيه والعياذ بالله؟ ومن ابتلي بالتسلط على الناس بأي نوع من أنواع التسلط لكبريائه أو مركزه، فإن هذا الشهر مدرسة له يتدرب فيها على الكف عن سوء طباعه، فإن لم ينطبع فيه ويتكيف بتقوى الله بعد خروجه، فهو الشقي المحروم، لأنه ممن رفض هذه المدرسة أو رسب فيها فلم ينل التواضع والإنصاف.

ومن ابتلي بشيء من المشروبات المفترة، فضلاً عن المسكرة، فعليه أن يستغل مدرسة شهر الصوم ليصوم عنها في ليله كما صام عنها في نهاره، وليربأ بنفسه من الإفطار على خبيث محرم أو مكروه بعد ما صام عن الطيب والحلال، حتى المبتلى بالدخان ونحوه، عليه مواصلة الصوم عنه في الليل ليهجره إلى غير رجعة، ولا يغلبه اليهود الذين حرموه في دولتهم المسماة (إسرائيل) فقد حرموه بادئ الأمر على جنودهم، ثم حرموه على الأساتذة والطلاب في جميع المدارس على اختلافها، فمن العار والشنار على المسلمين الذين هم جند الله أن يغلبهم اليهود على تحريم ذلك وهجره، فأولى بالمسلمين وأولى أن يكونوا هم السابقون لجميع العالم في كل شيء لا لليهود فقط، وأن يهذبوا أنفسهم بحسن جهادها ليتهيؤا للجهاد الأكبر الذي أسلفناه، فإن المهزوم داخلياً لا يصلح للجهاد ولا لأي إعداد.

وفي شهر رمضان يتدرب المسلم على عبادة الله، ويجد لها حلاوة، ويألف المساجد ويعمرها، ويحظى بصحبة الأخيار، فتغشاه الرحمة وتعمه البركة من الله، لاسيما من وفق لصلاة التراويح، ورتع قلبه في ربيع القرآن، ورزقه الله الخشوع، فإنه ينتفع انتفاعاً روحياً يكتسب به الإقبال على الله، والترفع عن اقتراف الإثم الذي يغمسه في المعاصي. فالمضيع للصلاة إذا عاودها واعتادها في رمضان يرجى له أن يداوم عليها بعد رمضان لما ينغرس في قلبه من التقوى والرجوع إلى الله فيه.

وكذلك الذين هم عن صلاتهم ساهون بتأخيرها أو عدم إقامتها جماعة، وقلة إلفهم للمساجد وعدم تعلقهم بها، يحصل لهم المواظبة في شهر رمضان على الصلاة جماعة في أوقاتها، فيألفون المساجد بإقامة الصلاة، فإذا وفقوا للنجاح في هذه المدرسة الرمضانية الربانية بحسن نيتهم وصدق إقبالهم على الله، كانوا طيلة السنة على صلاتهم

دائمين وإليها مقبلين عن حب وشغف، فيكونوا محافظين على أدائها في المساجد.

وقد ذكر النبي ﷺ في تعداد السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله – رجل قلبه معلق بالمساجد – والمسلم لا يجد حلاوة الإيمان حتى يستعذب الطاعة ويستشعر المغيبات من وعد الله ووعيده كأنها شيء حاضر ماثل أمام عينيه ليقوم بتحقيق الخوف والرجاء بالمسارعة إلى مرضاة الله والمنافسة في طاعته واجتناب موجبات سخطه. وخير مدرسة للتدريب على ذلك هي مدرسة الصيام في هذا الشهر المبارك.

وأيضاً فشهر الصوم مدرسة للبخيل الذي ابتلي بالشح وقسوة القلب، إذ يحصل له بصومه تذكير عملي أوقع في نفسه من نصح الناصح وخطبة الخطيب، لأنه تذكير يسمعه ويتلقنه من صوت بطنه إذا جاع وأمعائه إذا خلت، وكبده إذا احترت من العطش، يحصل له من ذلك تذكير عملي بجوع الجائعين، وبؤس البائسين، وحاجة المحتاجين، فتسمح نفسه بأداء حق الله إليهم، وقد يجود عليهم بزيادة (فشهر الصيام شهر الجود والمواساة، وشهر يزاد فيه من رزق المؤمن، كما قال ﷺ، وزاد فيه قوله: (من فطر صائماً كان له مثل أجره من غير أن ينقص من أجره شيء)، وإن الذي تربى في النعمة ولم يذق طعم الجوع أو مرارة العطش لا يدري ما يحل بغيره من البؤساء، لكن بصيامه يحصل له التذكير العملي والتوجيه اللاشعوري، كما يحصل له حق المعرفة بقدر نعمة الله عليه، فإن النعمة لا يعرف قدرها إلا من فقدها، وكلما ازدادت معرفة المسلم بالنعمة ازداد قيامه بشكرها. والشكر الصحيح المطلوب هو حسن التصرف في النعم، وذلك باستعمالها في طاعة الله والاستعانة بها على حمل رسالته وتنفيذ وصاياه في وحيه وعدم صرف شيء منها في معصيته.

والصوم الصحيح يحقق المعرفة بالنعمة ويوقظ الشعور إلى حسن التصرف فيها، ولذا ختم الله الآيات المتعلقة بالصيام بقوله: (لعلكم تشكرون) كما سنفصله إن شاء الله.

ثم إن في شهر الصيام مدرسة للقرآن لمن التفت إلى الله فيه وأكثر من قراءته، فإنه مع ما يجنيه من الثواب العظيم بمضاعفة الحسنات يحصل له التدريب على مواصلة قراءة القرآن خارج رمضان، ويحفزه ذلك على تدبر الآيات وتعقلها ومحاسبة النفس عليها، ليكون من التالين كتاب الله حق تلاوته بمعرفة معانيه، والوقوف عند حدوده بفعل ما

أمر الله. وقد يكون ذلك سبباً لسعادته وراحة لقلبه إذا انشغل به عما سواه.

وبالجملة فهو شهر يحصل به تقوية الإرادة على فعل الخير وترك الشر وهجر المضر الذي قد ابتلي به كثير من الناس، كالدخان الذي يستنفد فيه مبلغ كبير من المال يسيل إلى الشركات الأجنبية التي أصبحت عوناً علينا لليهود، مما لو ضبط لبلغ مئات الملايين بالعملة الصعبة لكل قطر عربي، زيادة على ما فيه من هدم الصحة والإضرار بالرئة والقلب والتأثير على الرأس والعقل.

وإني أنصح الصائم أن يتدرب في صومه عنه بالنهار على تركه بالليل نهائياً إلى غير رجعة. أنصحه بكل حرارة أن يواصل عزيمته وقوة إرادته بالليل كما كانت بالنهار، فإن الله جعل له الصيام (جنة) ووقاية من تناول ما يضره، فلا يليق به أن يخرق هذه الجنة ويضيع هذه الوقاية بأن تغلبه نفسه الأمارة بالسوء على الرجوع إلى ذلك بالليل بعد ما تركه في النهار. يجب أن لا تخور قواه ولا يفسد حكمة صيامه بضعف إرادته وشدة هلعه عند الإفطار، فيكون ساقطاً من هذه المدرسة الكريمة.

فالله الله أيها الصائمون، اغتنموا هذه الفرصة للعزوف فيها عن كل شر، وترك كل شيء مضر، ليكون صيامكم صياماً إنسانياً كاملاً، قد توفرت فيه القوة، وحصلت منه الحكمة، لا أن يكون صوماً بهيمياً. وقاكم الله من مثل السوء إن صوم رمضان من أركان الإسلام ومبانيه، لا ينكره إلا كافر بما أنزل على محمد ﷺ، وكل من يستهجن الصيام أو يستهزئ به فهو مرتد عن دين الله، تجري عليه أحكام المرتدين من وجوب قتله وأخذ ماله، لأنه لا يرث ولا يورث، وينفسخ عقد نكاحه، بحيث قال السادة الشافعية: (من أتى بما يوجب الردة في بلد لا تقام فيه حدود الله أو لا يطبق فيه شرعه، كان نكاحه منفسخاً في نفس الأمر، ومعاشرته لزوجته تعتبر سفاحاً).

ولقد كسب الإفرنج في تربيتهم لأبنائنا كثيراً من هذا النوع الذي يستهجن أوامر الله وينفر من طاعته، بل يتطاول على الله بالتنديد لدينه والاستهزاء والتشكيك في فرائضه وحدوده، لما انغرس في قلبه من الإلحاد بما يلقنه أساتذة السوء وما يقذف به بواسطة وسائل النشر المختلفة من ضروب التشكيك وتحبيب التمرد على الروحانيات.

ومن المصيبة أن هذا الصوم لو شرعته المنظمات الدولية الكافرة وأوجبته على جيشها أو على شبابها أو كشافتها، لما وجدنا أحداً من هؤلاء المضبوعين يستهجنه أو

يستهزأ عليه، بل ينعكس أمرهم إلى مدحه وشدة إطرائه والحث عليه والإعجاب بمن شرعه، لأنه من أعظم وأحسن وسائل التربية، ولكن لما كان المشرع هو رب العالمين على لسان نبيه العربي الذي حسدته اليهودية العالمية وأذنابها، كان هذا جزاؤه من أبنائه المتبجحين بالعروبة. وفقهم الله للخير والصواب.

فيا إخواني إن شريعتكم عظيمة حكيمة، لأن رسالتكم رسالة عامة خالدة ما دامت السماوات والأرض، وليس فيها تشريع لا يساير التطور الصحيح، أو ينقص من المجهود كما يزعمون، فإن الذي يكون قوياً أميناً في حفظ أمانة الله ورعاية أوامره يكون قوياً في عمله، أميناً على ما استرعاه غيره من عمل.

ومن خان أمانة الله العظمى في شرائع دينه فهو لغيرها أشد خيانة، ومن تدرب على قوة الإرادة وصدق العزيمة شهراً كاملاً عن إيمان واحتساب، فإنه يكون قوي الشكيمة، شديد المراس، صلب في التصميم.

فهذه تربية الرحمن الرحيم، لابد أن تتفوق على تربية المخلوق، وفيها من مسايرة التطور الصحيح ما تشهد له العقول الرجيحة، كما نراهم الآن يلجأون إلى كل تشريع تحصل به القوة الجسمانية والعقلية.

ومن تأمل في تربية الدول الحديثة لجيشها الذي تصطفيه للحرب والدفاع، عرف حكمة الله من شرعية الصوم والحج وغيره. فالمسلم هو جندي الله، مكلف بحمل رسالته، وتوزيع هدايته، وقمع المفتري عليه، وعدم السماح له بالانتشار، فهو أحوج إلى التربية القوية من غيره.

وما أجهل الذين يفتون للعمال بالإفطار في رمضان، متعللين بحجة واهية، بل بشبهة مدحوضة لا يقرها الكفرة الأصليون، فقد حصل من (الإنكليز) أكثر من مرة امتحان العمال المسلمين بين الصيام وبين خيانة الله فيه، وذلك بإغرائهم بمضاعفة الأجور للمفطرين، حتى إذا انتهى الشهر عكسوا الأمر، فضاعفوا أجور الصائمين، ونقصوا المفطرين أو طردوهم، مع التصريح لهم أنهم خونة قد خانوا دينهم.

أما أفراخهم اليوم من المحسوبين على الإسلام فإنهم يتطاولون على وحي الله وحكمه، زاعمين أن الصيام ينقص من الإنتاج، مع أن الواقع يكذبهم في ذلك، فقد جرب المسلمون في كل عصر صيام رمضان وقت اشتداد الحر، وكل منهم يذهب إلى

عمله ويؤدي واجبه، ولم يزد والله تعبنا وقت الصيف في رمضان على غيره. والعلة في الحقيقة ليست من الصوم ذاته وإنما هي من ضعف النفس وقلة الإيمان.

فأولى لهم وأولى أن يعملوا على تربية نفوسهم وتقوية إرادتها وتسليم الحكم لله وحده، وأن يعترفوا بأن حكمته فوق كل حكمة، وأمره فوق كل شيء.

والعجب أنهم لا يعتبرون الأعياد القومية المختلفة المبتدعة على كثرتها منقصة للإنتاج، وهي لو قورنت بالنقص الوهمي الذي يزعمونه في الصيام لزادت عليه، مع العلم أن الإسلام أبطل الأعياد القومية الوثنية لكونها أعياداً مادية أرضية لا روحانية فيها، ولكونها ينفق فيها من الأموال، ويضيع فيها من الوقت، ما فيه تبديد لطاقات الأمة دون فائدة تعود إلا على أفراد تسبح الدعاية بحمدهم وتقدس ويكون فيها مجالاً ومربحاً للمداحين الذي أمر الشارع أن يحثى في وجوههم التراب وقد أسلفنا حديث المنع فيما مضى، ولكن هذه الأعياد يروجها المتجرون بعواطف الشعوب ممن يريدون كيل المدح لأشخاصهم، فنرجوا الله أن ينجيهم من الضلال وأن يرفعهم وينقذهم من هذه الهزيمة العقلية، وأن يوفقهم لتدبر قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ* إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾(١). فإن هذا خطاب من الله سبحانه وتعالى لكل مسلم.

فالواجب على أمة محمد وورثة محمد ﷺ أن يحاربوا الثقافة الاستعمارية الزائفة أعظم من محاربته عسكرياً، لأن الاستعمار الثقافي أنكى وأفظع. والله حذرنا من طاعتهم واتباعهم في أي شيء من مذاهبهم وأذواقهم، وأخبرنا أنهم يريدون ضلالنا وأن نميل مع الأهواء. قال تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً﴾(٣)، لأننا إذا ساويناهم في ضلالتهم وفساد أخلاقهم فقدنا المدد من الله وابتعدنا عن الوحدة التي لا يحققها الله

(١) سورة الجاثية، آية ١٨.

(٢) سورة النساء، آية ٨٩.

(٣) سورة النساء، آية ٢٧.

لنا إلا بالاستمساك بهداه والاعتصام بحبله الذي هو القرآن، وبدون ذلك يربح أعداؤنا المعركة فتتسلط علينا اليهودية العالمية التي ما فتئت تعمل لذلك.

وليعلم أن الذي يستهجن مشروعية الصيام فإنه مرتد عن الإسلام ولو صام، لأن ذلك من نواقض الإسلام، وكذا من يبيح للعمال أو الطلاب الإفطار في رمضان لاستدراكه على الله في شرعه وعلمه وحكمته، فجريمته عظيمة تزيد على الكفر، لأنه نصب نفسه طاغوتاً مشرعاً من دون الله، فهو منازع لألوهية الله وملوكيته في الأرض، وهذا بعض ما تجره الثقافة الاستعمارية الكافرة التي ركزت فيها الماسونية اليهودية كثيراً من ضروب الإلحاد.

هذا وليعلم أن مدرسة رمضان أعظم وأنفع من جميع المدارس العسكرية وكليات التربية الحديثة على اختلاف أنواعها، لأن التربية العسكرية والمدنية كلها مقصورة على أشياء مادية خالية من الروحانية، بخلاف المدرسة الرمضانية، فإن تربيتها العامة مشربة بروح التقوى، وأعظم فوائده الروحية التعبدية المقصودة بالذات هي كون الصائم يصوم لوجه الله، كما هو المشروط في النية. وقد قال بعض العلماء بوجوب تبييت النية في الليل، مستنداً على حديث نبوي، فمن صام لأجل الصحة فقط فليس عابداً لله في صومه، إلا أن ينوي العبادة معها، وتقدم البحث عن آثار الصيام في التقوى بما فيه كفاية.

صوم المريض والمسافر – وصوم عاشوراء

وقوله سبحانه وتعالى: (أياماً معدودات) يعني معينات بالعدد، وتعبيره سبحانه بذلك للتقليل الذي يراد به التسهيل. وزعم بعض المفسرين أن الأيام المعدودات غير رمضان كيوم عاشوراء، وثلاثة أيام من كل شهر، وليس عندهم نص يصلح للاستدلال قطعاً، إذ لو ورد نص بذلك لتوفر نقله، إذ يستحيل خفاء تكليف عمل به. وأما يوم عاشوراء فهو معظم في شرع من قبلنا وورثت الجاهلية تعظيمه، ويقال إن صومه كان واجباً قبل نزول فرضية صيام رمضان. فلما نزلت فرضية صوم رمضان كانت ناسخة له، وهذا أيضاً يحتاج إلى دليل، ولكن الواضح من الآثار هو أنه كان يصام في الجاهلية وعند اليهود دون ورود دليل يوجبه علينا.

ويلاحظ من الأحاديث الصحيحة أن النبي ﷺ بلغه في آخر عمره أن اليهود تصومه تعظيماً له بحجة أنه اليوم الذي أنجى الله فيه موسى وقومه من الغرق وأغرق أعداءهم فيه، فقال ﷺ: (نحن أحق بموسى من اليهود، لئن بقيت إلى قابل لأصومن التاسع مع العاشر) يريد مخالفتهم، فبقيت هذه المخالفة سنة في أمته.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ يعني من كان مصاباً بمرض يتكلف به أو يشق عليه الصيام بسببه، فإنه يجوز له الإفطار، وكذلك المسافر، لأن السفر مظنة المشقة، فإذا أفطر المريض أو المسافر جميع رمضان أو أياماً منه وجب عليه الاحتفاظ بقضاء أيام أخرى بدلاً عما أفطره في رمضان، لأنه لابد للمسلم من تحصيل مصالح الصوم الحسية والمعنوية، فإذا فاته صيام رمضان لعذر قضاه وقت استطاعته.

وقد أطلق الله المرض والسفر اكتفاء بمظنة المشقة، فلم يحدد نوع المرض ولا صفته لاختلاف الناس في الصبر والتحمل، بل جعل مظنة المشقة كافياً في تحقيق الرخصة تسهيلاً على المكلفين وإناطة للمشقة بضمائرهم حسب إحساساتهم المختلفة، لأن تحديد المشقة فيه عسر وعرفان الضرر بالتحقيق أعسر، فقد يكون بعض الأمراض لا يشق معه الصوم ولكنه يضر بالمريض أو يكون سبباً لطول مرضه أو زيادته، فمن جملة يسر الدين وسماحته عدم تقييد الله لحدود المشقة في المرض والسفر وجعله ذلك موكولاً

إلى نفس المكلف وضميره وما تقتضيه الحال من الملابسات.

وقد جاء ذكر المرض والسفر من الله بصيغة التنكير ليشمل كل مرض وكل سفر، فلا عبرة بقول من حدد السفر بمسافة قصر لورود النصوص بخلافه، فقد روى ابن أبي شيبة بسند صحيح عن ابن عمر أنه كان يقصر في الميل الواحد من السفر. وروى سعيد بن منصور عن أبي سعيد قال: كان رسول الله ﷺ إذا سافر فرسخاً قصر الصلاة. والفرسخ ثلاثة أميال.

وهذه الرواية تفسر ما رواه الإمام مسلم والإمام أحمد وأبو داود عن أنس من كون الثلاثة فراسخ أو الأيام ثلاثة أميال. ولا ينافي هذا ما ورد من قصره ﷺ للصلاة في أكثر من ذلك. والسفر الذي يباح فيه القصر يباح فيه الفطر.

وزعم بعض العلماء أن من سافر في أثناء اليوم لا يجوز له الإفطار إلا في اليوم الثاني بتعليل لفظي، ولكن جرت السنة على خلاف ذلك، فقد روى البخاري وغيره عن ابن عباس قال: خرج رسول الله ﷺ إلى مكة والناس مختلفون، فصائم ومفطر، فلما استوى على راحلته دعا بإناء من لبن أو ماء فوضعه على راحته أو راحلته، ثم نظر إلى الناس، فقال المفطرون للصوام: أفطروا).

وفي حديث أنس وأبي بصرة النص على الأمر بذلك، وورد غير هذا في الأحاديث التي تدل على جواز الإفطار أو أفضليته لمن سافر ولو كان صائماً ناوياً للصيام من ليله.

أما الظاهريون فذهبوا إلى عدم إجزاء الصوم للمريض والمسافر وأنه يقضيه أخذاً بقوله تعالى: ﴿فعدة من أيام أخر﴾ دون مراعاة الحذف والتقدير الذي راعاه جمهور المفسرين. وذهب بعض الظاهرية إلى عدم القضاء مع الصيام. وذهب بعضهم إلى وجوب الإفطار على المريض والمسافر.

وقد نصت السنة العملية بخلاف ذلك، والعجب أن كلامهم يقتضي تضييق الله على المريض والمسافر وتشديده عليهما بما لم يشدد على غيرهما.

وهذا عكس لمقصود الله من السر في التشريع، وسببه الجمود تارة وتقليد الجامدين تارة – روى الإمام مسلم والترمذي وصححه النسائي وكلهم رووا عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ خرج إلى مكة عام الفتح فصام حتى بلغ كراع الغيم

وصام الناس معه، فقيل إن الناس قد شق عليهم الصيام وأنهم ينظرون فيما فعلت فدعا بقدح من ماء بعد العصر فشرب والناس ينظرون إليه، فأفطر بعضهم وصام بعضهم، فبلغه أن ناساً صاموا، فقال: أولئك العصاة).

وروى الإمام أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والنسائي كلهم عن جابر قال: كان رسول الله ﷺ في سفر فرأى زحاماً ورجلاً قد ظلل عليه، فقال: ما هذا؟ فقالوا: صائم، فقال: «ليس من البر الصيام في السفر» وقد روى هذا الحديث من طرق متعددة، صحيحة.

ومن أراد المزيد من النصوص فعليه بجامع الأصول ونحوه يجد عشرات الأحاديث الدالة على الإفطار في الصيام، وأنه رخصة، وأنه أفضل أيضاً.

وقوله سبحانه: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ اعلم أن الإمام ابن جرير رحمه الله ذكر في معنى هذه الجملة من الآيات ثلاثة وجوه:

أحدهما: أن الأمر كان في البداية على التخيير بين الصيام والإطعام، ثم نسخ بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ وأورد في ذلك بضعة عشر أثراً عن معاذ بن جبل وعمرو بن مرة وعلقمة والحسن البصري وابن عمرو والشعبي وابن شهاب وسلمة بن الأكوع وعبيدة والضحاك.

ثم أتى رحمه الله بقولين متماثلين أو متقاربين في المعنى وهما أن هذه الآية أو هذه الجملة في الآية محكمة لم ينسخ فيها شيء وأنها تعني الشيخ والعجوز وكل من يصعب عليه الصوم أنه يفدي طعام مسكين لكل يوم. وأورد بضعة عشر أثراً عن ابن عباس وعكرمة وقتادة والربيع والسدي وابن عباس أيضاً في الحامل والمرضع أورد عنه وعن السدي عدة آثار ثم عن ابن عمر فيهما وعن سعيد بن المسيب أورد ابن جرير عن هؤلاء في هؤلاء ثلاثة عشر أثراً.

ثم أورد القول الثالث أو الرابع في الترتيب وهو الذي على قراءة ابن عباس (وعلى الذين يطوقونه) أي يطوقونه وهم لا يطيقونه كالشيخ الكبير العجوز والحامل والمرضع فمن يكلف بالصوم وهو يجهده فأتى بثمانية وعشرين أثراً تؤيد معنى هذه القراءة، منها أربعة عشر أثراً عن ابن عباس سنذكر بعضها للاختصار، وأربعة آثار عن عكرمة، وواحد عن عائشة رضي الله عنها، وواحد عن سعيد بن جبير، وأثرين عن عطاء،

وأثرين عن مجاهد، وأثرين عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأثر عن أبي طاووس، وأثر عن الضحاك.

ثم رجح القول بالنسخ وزعم أن قراءة (وعلى الذين يطوقونه) مخالفة لمصاحف المسلمين وأنها تعارض ما ثبت وقامت به الحجة أنه من عند الله حتى غفر الله له ولجميع العاملين المصلحين في دين الله، وليست هذه القراءة على ما زعمه أنها من الآراء والظنون، بل هي قراءة مشهورة، وإن كانت شاذة بالنسبة إلى تواترها، لكن معناها صحيح يفسر حقيقة هذه الجملة من الآية ويحميها من دعوى النسخ وليس فيها ما يعترض أو يعارض هذه القراءة المشهورة أبداً، بل فيها ما يفسرها حسب اللغة الفصحى التي جاء بها القرآن، وهي بحمد الله قراءة عائشة أم المؤمنين وابن عباس رضي الله عنهما، ومعناها يفسر المقصود من الآية، وذلك أن الطاقة معناها غاية الجهد، فمن أجهده الصيام وأنقض ظهره لكبر سنه وضعف حاله فله الرخصة مع الفدية ويشهد لهذا المعنى أولاً نص القراءة (يطوقونه) يعني يطوقونه بالتكليف وهم لا يطيقونه.

والشاهد التالي هو المزدوج من العقل واللغة، فإنك أيها الإنسان لا يجوز لك أن تقول (إني أطيق الرطل أو الرطلين، ولكن تقول: أطيق حمل القنطار أو القنطارين – وتقول: أطيق كيس السكر أو كيس الأرز ولا تقول: أطيق كيس الحلاوة، فينتقدك السامع، لأن الطاقة في اللغة العربية هي غاية الجهد، فتفسير الآية يجب أن لا يخرج عن هذا المعنى، لأن دعوى النسخ صعب إثباتها، فيكون للمبطلين مجال للتلاعب، وعليك أيها المسلم الابتعاد عن همزات الشياطين المحبين للانحلال والإلحاد والبطالة وأن تسلك الحزم بالتزام طاعة الله في الصيام.

ومع أن القراءة الشاذة يجوز العمل بمشهورها فنحن لم نعتمدها على الإطلاق، بل استشهدنا بها على حقيقة المعنى المطلوب من الآية (وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين) يعني يتحملونه بكلفة ومشقة، كالشيوخ الضعفاء والزمنى الذين لا يرجى برؤهم ونحوهم ممن يشق عليهم الصيام لتكليفهم بالأعمال الشاقة سخرياً لا خيرة لهم ولا راحة.

قال الراغب: الطاقة اسم لمقدار ما يمكن للإنسان أن يفعله بمشقة، وذلك تشبيه بالطوق المحيط بالشيء. فقوله (ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به) أي ما يصعب علينا

مزاولته وليس معناه (ولا تحملنا مالا قدرة لنا به).

وبعض المفسرين قدر حرف نفي فقال: (وعلى الذين لا يطيقونه فدية) – ليوافق مذهبه. والآية موافقة له من غير حاجة إلى جعل الإثبات نفياً كما أوضحنا معناها من غير تكلف تقدير نفي. وقال بعضهم: إن الهمزة في الإطاقة للسلب، فمعناها الذين لا يطيقونه من غير تقدير حرف النفي.

قال صاحب المنار عن هذا – وهو قول منقول معقول، ويظهر بإرادة سلب الطاقة، أي القوة به لا قبله. والقاعدة أنه لا يحكم بالنسخ إذا أمكن حمل القول على الإحكام.

(قلت) والمعنى ظاهر الوضوح بلا إشكال والحمدلله، فلا يقول بالنسخ إلا المولع بالقول بتكثير الناسخ والمنسوخ ومن قلده من الناقلين بلا إمعان.

وقال ابن جرير: حدثنا هناد قال حدثنا علي بن مسهر عن عاصم عن عكرمة عن ابن عباس أنه كان يقرأ (وعلى الذين يطوقونه فدية طعام مسكين) قال: فكان يقول: (هي للناس اليوم قائمة). وكذا ساق أثراً رقمه ٢٧٦٧ بسنده عن ابن عباس، والأثر المرقم ٢٧٦٨ بسنده عنه أنه كان يقرؤها هكذا، ويقول هو الشيخ الكبير يفطر ويطعم عنه. وكذا ساق الأثر بعده عن عكرمة، ومثله الأثر المرقم ٢٧٧١ عن عكرمة قال: الذين يطيقونه يصومونه ولكن الذين يطوقونه يعجزون عنه). وقبله أثراً عن سعيد بن جبير أنه قرأ: (وعلى الذين يطوقونه). وبعده الأثر المرقم ٢٧٧٢ أن عائشة كانت تقرأ (يطوقونه). ثم الأثر ٧٣.. أن عطاءاً كان يقرؤها (يطوقونه). قال ابن جريج وكان مجاهد يقرؤها كذلك. ثم الأثر ٧٤.. عن عكرمة، قال: قال ابن عباس: هو الشيخ الكبير. والأثر ٧٥.. مسنداً إلى سعيد بن جبير عن ابن عباس «وعلى الذي يطوقونه» قال (يتجشمونه يتكلفونه).

والأثر ٧٦.. عنه. قال الشيخ الكبير الذي لا يطيق فيفطر ويطعم كل يوم مسكيناً. والأثر ٧٧.. مسنداً عن مجاهد وعطاء عن ابن عباس في قول الله: (وعلى الذين يطيقونه)، قال يكلفونه: فدية طعام مسكين واحد. قال فهذه آية منسوخة لا يرخص فيها إلا للكبير الذي لا يطيق الصيام أو مريض يعلم أنه لا يشفى).

قلت: ومعنى كلامه هذا كالسابق. ثم ساق ابن جرير الأثر ٢٧٧٨ مسنداً إلى

عطاء عن ابن عباس، قال (الذين يطيقونه) يتكلفون: فدية طعام مسكين واحد، ولم يرخص هذا إلا للشيخ الذي لا يطيق الصوم أو المريض الذي يعلم أنه لا يشفى – هذا عن مجاهد. ثم ساق الأثر ٧٩. مسنداً عن مجاهد عن ابن عباس أنه كان يقول: ليست بمنسوخة.

ثم ساق الأثر (٢٧٨٠ عن ابن عباس في قوله: (وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين) يقول: من لم يطق الصوم إلا على جهد فله أن يفطر ويطعم كل يوم مسكيناً، والحامل والمرضع والشيخ الكبير والذي به سقم دائم) وكذا ساق الأثر المرقم ٨١ و ٨٣ عن ابن عباس أيضاً. ثم الأثر (٢٧٨٤) مسنداً إلى علي رضي الله عنه في قوله: (وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين)، قال: الشيخ الكبير الذي لا يستطيع الصوم يفطر ويطعم مكان كل يوم مسكيناً).

ثم الأثر ٨٥ عن ابن عباس قال: (وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين) (قال: هم الذين يتكلفونه ولا يطيقونه: الشيخ والشيخة) إلى الأثر ٧٩ عن ابن جريج. قال قلت لعطاء: ما قوله: (وعلى الذين يطيقونه) قال: بلغنا أن الكبير إذا لم يستطع الصوم يفتدي من كل يوم بمسكين: قلت: الكبير الذي لا يستطيع الصوم أو الذي لا يستطيعه إلا بالجهد؟ قال: بل الكبير الذي لا يستطيعه بجهد ولا بشيء فأما من استطاع بجهد فليصمه ولا عذر له في تركه).

وباقي الآثار كلها مجمعة على أنها في الشيخ الكبير العاجز عن الصيام، وكذلك الآثار الثلاثة عشر التي أتى بها ابن جرير قبلها تفيد عن هذه الآية بأنها حكماً خاصاً للشيخ الكبير والعجوز، فلا حاجة لدعوى النسخ ما دام المعنى ظاهر ولم يحصل تعارض بين مجمل الآية.

ويبدو من أكثر الآثار المروية عن الصحابة والتابعين أن الخلاف لفظي لا جوهري، وادعاء ابن جرير رحمه الله النسخ بزعمه أن (الهاء) في قوله (وعلى الذين يطيقونه) من ذكر الصيام، ومعناه: وعلى الذين يطيقون الصيام فدية طعام مسكين، فإذا كان كذلك... إلخ، لا معنى لزعم النسخ ما داموا مجمعين على أن القادر لا يجوز له الإفطار بالافتداء، لأن الشأن في معنى الإطاقة وأنها غاية الجهد الشاقة، خصوصاً على القول بأن من نام قبل الإفطار وجب عليه الصيام حتى الليلة القابلة فهذا من

المشقة بمكان عظيم. فالآية واضح معناها وليس بينها وبين ما بعدها تعارض أبداً حتى يصار إلى النسخ، وليلاحظ أن الله لم يقل (وعلى الذين يستطيعونه) حتى تسوغ دعوى النسخ، بل أتى باللفظ الذي يفهم منه عدم الاستطاعة حيث قال: (وعلى الذين يطيقونه) أي يتكلفونه ويتجشمونه بجهد وإجهاد، كما فسروه بمدلول اللغة عرفاً وعقلاً. والله أعلم.

هذا وقد روى البخاري في كتاب التفسير من صحيحه حديثاً في التخيير بادئ الأمر ثم أسند عن ابن عمر أن الآية منسوخة، ولكنه روى عن ابن عباس من طريق عطاء خلاف ذلك عن ابن عباس أنها ليست منسوخة، وإذا اضطربت الأحاديث وجب الجمع بينهما، والجمع بينهما واضح بما قلناه سابقاً ونقلناه عن إمام التأويل وتؤيده القراءة (يطوقونه) مما يتضح به الأمر ويزول الإشكال ولا ينفتح به للملاحدة والمشككين مقال.

قال الرازي: أول الآية دل على إيجاب الصوم وهو قوله (كتب عليكم الصيام... أياماً معدودات)، ثم بين أحوال المعذورين، ولما كان المعذورون على قسمين: منهم من لا يطيق الصوم أصلاً، ومنهم من يطيقه مع المشقة والشدة. فالله تعالى ذكر حكم القسم الأول ثم أردفه بحكم القسم الثاني.

(الحجة الثانية) في تقرير هذا القول أنه لا يقال في العرف للقادر القوي أنه يطيق هذا الفعل، لأن هذا اللفظ لا يستعمل إلا في حقه.

(الحجة الثالثة) أن على أقوالكم لابد من إيقاع النسخ في هذه الآية، وعلى قولنا لا يجب، ومعلوم أن النسخ كلما كان أقل كان أولى، فكان المصير إلى إثبات النسخ من غير أن يكون في اللفظ ما يدل عليه غير جائز.

(الحجة الرابعة) أن القائلين بأن هذه الآية منسوخة اتفقوا على أن نسخها آية شهود الشهر، وذلك غير جائز، لأنه تعالى قال في آخر تلك الآية ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾[1]. ولو كانت الآية ناسخة لها ما كان قوله: (يريد الله بكم اليسر...) لائقاً بهذا الموضع، لأن هذا التقدير أوجب الصوم على سبيل التضييق

---

(١) سورة البقرة: ١٨٥.

ورفع وجوبه على سبيل التخيير، فكان ذلك رفعاً لليسر وإثباتاً للعسر. فكيف يليق به أن يقول (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر)؟ اهـ.

وقد قدمنا القول بأنه لا داعي للقول بالنسخ ولا مساغ له، بل ولا يصح له وإنما يجر إلى الشغب في القرآن وإعطاء فرصة للمبطلين بذلك. وقد أزال الرازي رحمه الله شبهة دعوى النسخ وأبطلها من معنى الآية الكريمة.

وقد قال قبل هذا فيما يتعلق بمعنى الآية ما نصه:

وتقريره من وجهين: (أحدهما) أن الوسع فوق الطاقة، فالوسع اسم لمن كان قادراً على الشيء على وجه السهولة. أما الطاقة فهو اسم لمن كان قادراً على الشيء مع الشدة والمشقة: فقوله (وعلى الذين يطيقونه) أي وعلى الذين يقدرون على الصوم مع الشدة والمشقة.

(الوجه الثاني) في تقرير هذا القول القراءة الشاذة (وعلى الذين يطوقونه) فإن معناه: وعلى الذين يجسمونه ويكلفونه.

ومعلوم أن هذا لا يصح إلا في حق من قدر على الشيء مع ضرب من المشقة.. إلى أن ذكر قول الأصم المختار. والوجوه التي احتجوا على صحته بها: أحدها غاية المرض. والثاني والثالث ما قدمناه. ثم ذكر ملاحظة القاضي رحمه الله على الأصح بالعطف في الآية، وهو يقتضي المغايرة، وأجاب عنها بقوله: (إنا بينا أن المراد من المسافر والمريض المذكورين في الآية هما اللذان لا يمكنهما الصوم البتة، والمراد من قوله (وعلى الذين يطيقونه) المسافر والمريض اللذان يمكنهما الصوم، فكانت المغايرة حاصلة، فثبت بما بينا أن القول الذي اختاره الأصم ليس بضعيف. اهـ.

وقوله سبحانه: (فدية طعام مسكين) الفدية: هي ما يفدي الإنسان بها نفسه ويقيها من الرق من مال يبذله أو يقيها من الإثم بكفارة يتصدق بها بدلاً عن العبادة المفروضة أو الجناية فيها، وهي مقدرة عن المفطر بطعام مسكين قدره ربع صاع من الحنطة أو نصف صاع من غيرها عند الحنابلة وبعض العلماء، وعند غيرهم نصف صاع حنطة أو صاع من غيرها. وقد أفطر أنس بن مالك رضي الله عنه عاماً أو عامين في آخر عمره وأطعم عن كل يوم مسكيناً خبزاً ولحماً، كما رواه أبو يعلى الموصلي وعبد بن حميد في مسنديهما والبخاري تعليقاً. وقال بعضهم: يطعم المفطر مسكيناً من

القوت الذي يتقوته، والأولى أن يراعي فيه الطعام المألوف كله في رمضان ليكون المطعم منفقاً مما يحبه. وقرأ نافع وأهل المدينة (فدية) بلا تنوين (طعام مساكين) والأولى هي المشهورة..

وقوله سبحانه: (فمن تطوع خيراً فهو خير له)[1] فيه تعميم لفضيلة التطوع دون تخصيص لها بمعنى من معاني الخير، فيكون من زاد في الفدية على طعام مسكين بأن أعطاه أكثر من طعام يوم، فزاده طعام أيام كثيرة، أو أطعم عدة مساكين، أو جمع بين الصوم الذي يرهقه والإطعام، فهو خير له، قد أحسن به إلى نفسه، وتبعد فضيلة الجمع بين الإطعام والصيام المرهق، لأن فيه رفض لرخصة الله وتيسيره.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[2] ترغيب من الله للمؤمنين بتحمل مشقة الصيام وصعوبته إيثاراً له على الإطعام، وإن كان في الإطعام منفعة لصائم آخر يتقوى بها على تلك العبادة العظيمة، لكن لما كانت فوائد الصيام فوائد حسية ومعنوية عظيمة لها شأن كبير في بناء المجتمع المسلم، نبه الله على خيرية الصيام وأفضليته على الإطعام:

فالصيام شرعه الله إيقاظاً للروح، وتصحيحاً للجسد، وتقوية للعزيمة وتعويداً على الصبر، وإيقاداً لمشاعر الرحمة، وتدريباً على كمال التسليم لله والانقياد لأوامره ورعاية أمانته فيما كلفنا به. ففيه كمال العبودية لله بغاية التسليم، وهذه الحكمة هي القدر المشترك في كل عبادة، والغاية السامية من كل فريضة، ولن يكون الإنسان عبداً لله إلا بتحقيقها. وفي الصوم يظهر ذلك أزود من غيره.

فعلى المسلمين أن ينتبهوا لأسرار الصيام ويستغلوا مدرسته، ليجنوا ثماره الصحيحة، ويستمدوا منه قوة الروح وروح القوة، فيكون نهارهم نشاطاً وإنتاجاً وإتقاناً، وليلهم حباً وتعاوناً وتهجداً وتلاوة لوحي ربهم، ومحاسبة لأنفسهم على ضوئه، ليخرجوا من هذه المدرسة ناجحين، وأن لا يغفلوا ويجبنوا في نهارهم ثم يعملوا في ليلهم ما هو مناف لحكمة الصوم من التنافس في أصناف المأكولات واللهو واللعب، فإن الله جعل

---

(١) سورة البقرة: ١٨٤.

(٢) سورة البقرة: ١٨٤.

الصيام للقلب والروح فلا يجوز لنا أن نجعله للبطن والمعدة. والله جعله للحلم والصبر، فلا يجوز أن نجعله للطيش والغضب: والله جعله لتقوية العزائم فلا يجوز أن نجعله خوراً أو لعباً. والله جعله لنا حمية وعبرة فلا يجوز لنا أن نجعله موسماً للطعام ووسيلة للتخمة. فكما أن الصيام فيه تقوية للروح وصحة للبدن فإن فيه تقوية للبدن إذا أحسن استعماله، فإن كثيراً من أمراض الناس ناشئة من بطونهم التي يتخمونها بشتى المشتهيات دون تفريق، فإن البطن مستنقع البلاء، والمعدة بيت الداء، كما أجمع عليه الأطباء، وقد قال ﷺ: (ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه).

ومن المقرر المعترف به أن الحمية رأس الدواء وهي الامتناع عن كثرة الأكل ولا يوجد فرصة كفرصة الصوم تستريح فيها المعدة ويتخلص الجسم من الفضلات الضارة.

وقد قرر علماء الطب الحديث أن الصوم يفيد الجسم كثيراً في بعض الأمراض التي تصيبه وخصوصاً أمراض الجهاز الهضمي، كالتهاب المعدة وبعض أوجاع الأمعاء وأمراض الحويصلة المرارية وما نتج عن زيادة الوزن وبعض أمراض القلب. ففي الصوم نفع من ذلك بشرط أن لا يكون الصائم منهوماً على الأكل في الليل، وما أضاع فوائد الصوم الصحيحة إلا جعل الناس رمضان موسماً كبيراً للأكل والجشع بأصناف الطعام خلال ساعات الليل.

وقد نشرت إحدى المجلات أن ثلاثمائة شخص قد برئوا من البول السكري بعلاج الصوم. ولا يزال الله يرينا عجائب حكمته وصدق ما أنزله على رسوله عليه الصلاة والسلام في وحيه المبين وأنه رحمان رحيم لا يشرع لنا ولا يوجب علينا إلا ما فيه الخير والمنفعة والحكمة العاجلة والآيات، ولهذا قال: (إن كنتم تعلمون).

رمضان والقرآن

قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾(١).

إشادة بهذا الشهر الكريم، وأنه كما جعله الله شهر الهداية العملية التهذيبية، فإنه أنزل فيه الهداية العلمية النظرية العامة الجامعة لخلال الخير كلها، والموضحة لأسباب السعادة في جميع نواحي الحياة، والموصلة إلى أعلى مراتب الكمال. إن الله لما قضى وجعل سعادة الشعوب وشرفها خير من حياتها تعهدها بإرسال الرسل وإنزال الكتب التي توضح لهم المعالم الموصلة إلى ذلك، فمن قصدها واتجه إليها ظفر بها، ومن انحرف وابتغى غير ما رسمه الله ضلت به بنيات الطريق، فتخبط في أنواع الغواية التي يشقى بها هو ومن تبعه وسار في فلكه بصنوف الأنانية والأغراض الدنيئة المفضية إلى الحروب الباردة والكاوية. فجميع ما يتعارفه الناس في الدنيا من أنواع الخير هو من بقايا الوحي والنبوات. وجميع ما حدث ويحدث من أنواع المفاسد والشرور هو من الانحراف عن ذلك والتكذيب به. لا مراء في هذا مهما غالط المغالطون فليس في اتباع الأهواء والأذواق خير، لأن الله وصف الإنسان بالجهل والظلم والهلع بجميع أنواع ذلك، وهو تعالى أعلم به لأنه الذي خلقه وطبعه على ذلك (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير).

وقد قضت مشيئته أن يختم الرسالات والوحي بهدايته الأخيرة العامة الكاملة الشاملة، وأن يشرف العرب بها ويجعل سائر الناس تبعاً لهم وعولاً عليهم، لتتعلق بهم قلوب الصادقين المخلصين، ويكشف المجرم الخبيث من اليهود وأعوانهم، حتى يذهب الله غيظهم بجهاد من صدق من حزبه، فبعث محمداً ﷺ من صميم العرب وفي قلب بلادهم وأنزل عليه هذا الوحي العظيم الخالد المحفوظ بإذنه جل وعلا ما بقي الدهر، حاملاً ما شرعه من دينه الحنيف على جميع الرسل والأمم من نوح إلى عهده ﷺ، كما قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ

---

(١) سورة البقرة: ١٨٥.

إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾.

ففي هذه الآية كما في غيرها غاية البيان أن دين الله واحد هو الإسلام جاءت به كل الرسل من نوح إلى محمد ﷺ وأن من زعم غيره، فهو مفتر على الله وجزاؤه معروف سنوضحه بحول الله، وأنه كبر على المشركين وصعب عليهم أن يدعوهم إليه العرب بعد ما اتبعوا أهواءهم وأخفوا منه كثيراً وحرفوه عن مواضعه، والمشرك هو كل من جعل لنفسه الخيرة في أمر من الأمور على خلاف وحي الله، سواء ادعى اليهودية أو النصرانية أو المجوسية أو البوذية أو الشيوعية ونحوها من كل مذهب مادي أو مبدأ قومي يتطاول أهله به على سلطان الله ويعطلونه عن حكمه بعدم امتثال أمره وطرح شريعته، فإن شرك التعطيل أعظم من شرك التشبيه. فالشرك ينحصر مدلوله باتباع الهوى ورفض الحق والركون إلى التخرص مما هو انتقاص لجناب الله واستهانة بعزته وإلحاد في أسمائه. ولذا قال تعالى: (إن الشرك لظلم عظيم)[1].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾[2] وقال: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾[3]. فالقرآن يفضح المشركين ويكشف سوءاتهم وينادي عليهم بالجهل والضلال لهذا كبر عليهم أمر العرب وصعب. فالمشرك عدو للعربي الحامل للقرآن والداعي بدعوته إلى الله حتى ولو كان عربياً مثله.

نعم. إنه يعادي من جعل الآلهة إلهاً واحداً، لأن نفسه تجنح إلى آلهة الهوى المتنوعة، إله الأطماع وإله الأغراض النفسية وإله الشهوات وإله الأنانية والانتهازية التي لا تقف عند حد، وإله المبادئ الحزبية والمذاهب المادية التي يتأكل بها المتأكلون وينال بها المغرضون شتى المناصب والألقاب وأنواع المديح والتقديس. لهذا كانوا حرباً على الرسل وأتباعهم الحاملين لواءهم إلى يوم القيامة. ولهذا كانوا أعداء للقرآن، يصمون عنه

---

(١) سورة لقمان: ١٣.

(٢) سورة الأنعام: ١١٦.

(٣) سورة النجم: ٢٣.

آذانهم ويحولون دونه الناس ويصدونهم عن استماعه ويتوعدون اتباعه.

فعلى أمة محمد ﷺ أن ينتبهوا لمقاصد أعدائهم كيلا ينجرفوا في تيارهم. وعلى كل من يعتز بعروبته أن يلتفت التفاتة صحيحة إلى القرآن ويجعل من عروبته أكبر حافز على أخذه بقوة، وذلك بحسن تدبره وتلقيه أولاً، ثم بتوزيع هدايته ثانياً، وأن لا يفرط في هذه المكرمة ولا يسترخص نفسه بالالتفات إلى غيرها من أوضاع أعدائه الذين تسيرهم الماسونية اليهودية العالمية اليوم باسم القوميات والوطنيات والمذاهب المادية، فيكون كمن استبدل الدر النفيس والذهب الإبريز بالخزف والنحاس.

إن الله شرف العرب أكبر تشريف وأكرمهم بأعظم مكرمة في مثل هذا الشهر مما يقرب من أربعة عشر قرناً بإنزال هذا القرآن العظيم بلغتهم العربية الكريمة مختاراً لها أن تكون هي اللغة الرسمية في جميع بقاع الأرض.

وقد انتشرت لغتهم في أغلب المعمورة وقت أسلافهم الذين شكروا نعمة الله بالعمل ورعوا أمانته في حمل رسالته حق رعايتها. وما أجدرنا اليوم بعرفان قيمتنا بين الأمم، وذلك بتوزيع الوحي المحمدي الذي ورثناه لتنتشر لغتنا أكثر من قبل وأوسع، ولنكون أساتذة العالم وحملة النور والصلاح والهداية والسلام ومصدري المثل العليا والمبادئ الصحيحة للعالم.

فنحن أمة التصدير كما أوجب الله علينا ذلك ومن لم يقم بالتصدير انعكس أمره فكان مستورداً.

ولا يليق بهذه الأمة أن تنحط من مقام العلو والتصدير إلى هاوية السفل والاستيراد ههنا، هذا لا يرضى به إلا الصعلوك الذي جعله الله صفر اليدين من كل هدى ورسالة ولكن هذه المهمة الجليلة التي هي توزيع الهداية والقيام بتطهير الأرض من الكفر والظلم تتطلب منا حسن التقبل أولا لما أنزل الله علينا وأن نقف الموقف المشرف من القرآن ونعطيه حقه الذي أوجبه الله بل نعطيه حقوقه الكاملة وهي – أن نفرح به أعظم فرحة، إذ يجب أن نفرح به فرحة لا يشبهها أي فرحة بأي شيء من متع الدنيا ولذائذها، لأن من كانت فرحته بمتع الدنيا ومكاسبها أعظم من فرحته بهذا القرآن فهو مريض القلب، ناقص التفكير، لاسيما إذا كان عربياً مسلماً، لأن كل شيء في الدنيا يزول ويحول وينتقل من المرء إلى عدوه، وبعض النعم تكون مفسدة أو مهلكة، ولكن

نعمة القرآن هي نعمة الوحي والرسالة الخالدة.

نعمة الهداية الأبدية العامة في كل شيء، ونعمة العزة والقيادة والسيادة العالمية لمن أحسن التصرف فيها وزحف بها إلى الأمام، كما فعل أسلافنا الذين تخرجوا من مدرسة الرسول ﷺ، فهي نعمة لا يعدلها نعمة، وهي منحة لا يعدلها منحة.

هي نعمة فيها الشفاء الصحيح للصدور من مرض الشبهات ومرض الشهوات. وهي نعمة تحصل بها المعرفة الصحيحة للحقائق ويتميز بها الخبيث من الطيب والصادق من المنافق. وهي نعمة يحصل بها الوحدة الصحيحة التامة العامة لجميع الأمة، وبعدم التزامها تحصل الفرقة والشقاق البعيد.

وهي نعمة يحصل بها الأمن الصحيح والعيشة الراضية السليمة في الدنيا والآخرة، وبعدم التزامها وعدم التمسك بها يحصل الخوف والتناحر والحروب والإرهاصات المتنوعة. ولذا قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ* قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾(١).

وفائدة الفرحة الصحيحة المطلوبة منا بهذا الوحي العزيز هي القيام بحقه الثاني وهو الانشغال به عما سواه من سائر الكتب الأخرى على اختلاف أنواعها، خصوصاً الكتب التي لعبت بها أيدي اليهود كالتوراة والأناجيل ومزامير داوود وبعض ما ينسب إلى الأنبياء والصالحين، فإن اليهود لعبوا ببعض الكتب ابتكاراً وابتداعاً وببعضها تحريفاً وتلبيساً.

فمن واجب المسلم عامة والعربي خاصة أن يقوده الفرح بما أنزل على محمد ﷺ إلى الانشغال به عن غيره، والاستغناء به عما سواه، كما ورد عن البخاري وغيره في تفسير معنى الحديث: (من لم يستغن بالقرآن فليس منا) حملوا التغني على الاستغناء، وأورده البخاري تعليقاً، وهو يحتمل الأمرين: تحسين الصوت به مع التحزن الناشئ عن الخوف والتعظيم والاستغناء به، لأن الله وصفه أنه هدى وبيان (بحذف المتعلق) ليشمل جمع أنواع الهداية والبيان في جميع نواحي الحياة وميادين العلم، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا

(١) سورة يونس: ٥٧-٥٨.

عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ وهذا نص صريح في عموم تبيانه لجميع الأشياء من جهة أصولها وضوابطها والقواعد التي تنشأ منها الفروع وتنبني عليها، لأن جزئيات الفروع تتجدد، ولكن الله جعل في وحيه لكل شيء أصلاً ومرجعاً يعرف فيه حكمه من حل وحرمة وصحة وبطلان وطيب وخبث وندب وكراهة، فلا يحدث حادث أو يتجدد نبات إلا ويعرف حكمه من تلك الأصول والضوابط.

وقد وصف الله القرآن بأنه مبارك وأنه رحمة فمن رغب عنه إلى غيره فقد تنكب عن البركة وأخرج نفسه من الرحمة، مهما زعم فإن مزاعمه كلها مغالطة. والله حصر الهداية العامة والحق الصحيح فيه وحصر الضلال فيما سواه).

نعم إن الله حصر الهداية العامة والحق الصحيح لجميع شئون الحياة في وحيه المبارك، وحصر الضلال فيما سواه. فكل من طلب الهداية بأي شأن من شئون الحياة في غير وحي الله فقد زاغ عن الهداية إلى الضلال. وقد وصف وحيه بأن نور، فمن حاد عنه لابد أن يتخبط في الظلمات وأن يكون أمره مريجاً فاسداً. ومن تنكب عن وحي الله زاعماً أنه في عصر النور أو في عصر لا يحتاج فيه إلى القرآن أو لا يصلح تطبيقه فيه، فهذا قد حاد عن الصراط المستقيم، صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض، وسلك طرق أهل الجحيم، واستهوته شياطين الإنس فمنهم دعاة على أبواب جهنم، من استجاب إليهم قذفوه فيها، كما أخبرنا عنهم الصادق المصدوق ﷺ في حديث حذيفة المشهور.

وأعظم من هذا النوع ضلالة من زعم أن الإنسان في هذا العصر قد نضج عقله وأصبح لا يحتاج إلى التقيد بنصوص الدين أو الرجوع إليها وأنه يستوحي الهداية من ضميره وتفكيره، فهذا والعياذ بالله مشاق لله ولرسوله، وكفره يزيد على كفر المعاندين الذين قالوا لمحمد ﷺ: (ائت بقرآن غير هذا أو بدله)، فعلمه الله أن يرد عليهم بقوله: ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ* قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ (١).

(١) سورة يونس: ١٥.

فهذا موقف سيد الخلق من أسلاف أهل هذه الفكرة وأمثالها، والله حصر الهداية من طريق الوحي، والضلال من طريق النفس فقال: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾(١)، فأخبر أن نبيه عليه الصلاة والسلام لا يهتدي إلا من طريق الوحي.

وإذا كان صفوة الخلق مقصورة هدايته على ما يوحي الله إليه، فكيف بصعاليك أهل هذا الزمان الذين تتناقض نظرياتهم وتكذب اكتشافاتهم بعضها بعضاً وتلعب الدجاجلة ومحترفو السياسة الموسمية بعواطفهم وعلى أذقانهم؟ كما شاهدنا كل ذلك عياناً وكما قص التاريخ علينا نبأ من قبلهم من قريب أو بعيد، حيث لم نجد عقولاً استنارت بغير وحي الله، ولا حصل زحف صحيح مقدس سليم نافع إلا على ضوء ما أنزل الله.

فيا ويح من جعل نفسه نداً من دون الله، أو زعم الاستغناء عن وحي الله.

هذا جريمته أعظم من جريمة من قال (سأنزل مثل ما أنزل الله) فمن زعم القدرة على تسيير أموره أو السلوك في الطريق الذي يختاره لنفسه دون الرجوع إلى وحي الله وحكمه فيما أنزل، وأنه في حالة يستغنى بها عن ذلك، فقد زاد في كفره وظلمه على أولئك الذين حكم الله عليه في هذه الآية بأنه من أعظم أنواع الظلمة بقوله ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾(٢).

والظلم في اللغة: النقص من الشيء. قال تعالى: ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً﴾ (٣). وقال: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾ أي لا ينقص من أجر أحد من عمله الطيب مهما كان حقيراً. كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا

---

(١) سورة سبأ: ٥٠.

(٢) سورة الأنعام: ٩٣.

(٣) سورة الكهف: ٣٣.

بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (١).

وإذا كان الظلم نقص الشيء مهما كان فلا ينقص أحد حق أحد إلا وهو منتقص لجنابه أو مستعل عليه أو مستهين بمغبة عاقبته. هذا في معاملة البشر للبشر فكيف بمعاملة الله جل جلاله؟ فلا ينقص أحد من حق الله الذي أوجب عليه أداؤه من أركان الإسلام وشعب الإيمان إلا وهو مستهين بعزته، غافل عن آياته، ولا ينتقص وحيه المنزل على محمد ﷺ إلا منتقص لجنابه، مستهين بعزته، غير معترف بعلمه وحكمته، أو منكر له بالكلية أو جاحد لآياته، غير مؤمن بلقائه ووعده ووعيده.

هذه أمور لابد منها مهما حاول الملحد التملص عنها، فإن المؤمن بالشيء لابد أن يكون لإيمانه آثار يتأثر بها في اتجاهه نحو هذا الشيء، بل في أفكاره وسلوكه، إذ لابد من تصور قيمة ما آمن به وتصور مفعوله ومدى نفعه أو ضرره مهما كان فكيف بالخلاق العظيم مبدع الأكوان وقيوم السموات والأرض.

فمن كان مؤمناً به حقاً ولم يعتبره خرافة، فإنه لابد أن يتصور مدى عظمته وعلمه وقدرته وإحاطته ورحمته وفضله وحكمته، ويتيقن أنه قاطن في أرضه، ساكن في ملكه، متقلب في نعمته، راتع في فضله، مغمور بإحسانه وجوده.

ويتيقن أنه مخلوق لحكمة، لم يخلق عبثاً، تعالى الله عن العبث الذي يترفع عنه الشريف من الناس، ثم يستشعر دائماً أن الذي خلقه مطلع عليه، رقيب على حركاته وسكناته، وأنه هيأه لأمر وفق حكمته، كما يهيئ الصانع أي آلة يصنعها لحرفة ما وفق صلاحيتها للقيام بمهمتها (ولله المثل الأعلى) والله أعلى وأجل.

وقد جعل وظيفة الإنسان خلاف وظيفة الآلة وأعلى. فذلك التصور المنبثق من الإيمان بالله يجره إلى الإيمان بالملائكة والكتاب والنبيين – هذا شيء ضروري للإيمان لا محالة – من كفر ببعضه فقد كفر بجميعه – ومن آمن بالكتاب والنبيين الذين خاتمهم محمد ﷺ وجب عليه اتباعه وتنفيذ وصايا ربه جميعها وإقامة حدوده، وجعل الحاكمية له في الأرض كما هي له في السماء، وذلك بتحكيم شريعته، والقيام بنصرة دينه، وقمع المفتري عليه. فمن عمل هكذا فهو المؤمن بالقرآن حقيقة، لأن هذه الأمور هي التي

(١) سورة الأنبياء: ٤٧.

يصدق عليها معنى الإيمان، ومن لم يقم بها فليس في قلبه من الإيمان بالله شيء سوى الدعاوى الفارغة والمزاعم الكاذبة التي يخدع بها نفسه أو يخادع الناس. كما أن من زعم الإيمان بمبدأ قومي أو مذهب مادي طالبه أهل ذلك المبدأ أو المذهب بالعمل من أجله والسعي لصالحه والتقيد بمخططاته، فإذا نكص عن العمل أو خالف المخطط اعتبروه منافقاً أو منحرفاً أو خائناً أو مرتداً حسب ما يرونه فيه، فلا يسمحون له بالانتساب، ولا يرضون منه أن يلعب على أذقانهم.

وهكذا فحقيقة الإيمان هي العمل بمقتضياته ولوازمه تماماً بدون إخلال.

ومن ادعى إيماناً عارياً عن العمل والتضحية فهو كاذب وأكذب منه من خالطه الريب والشكوك، كشأن كثير من أدعياء الإسلام والإيمان الذين انصبغوا بثقافة الإفرنج وأعجبوا بها، وزهدوا في وحي الله ورسالته، بل لم يقدروه حق قدره ولا بعض قدره فلم يعاملوه ولا بعشر معشار ما يعاملون زعماءهم ورواد مذاهبهم من الحب والإجلال والعمل والانقياد والبذل والتضحية، بل كان سهمه منهم الإعراض والاشمئزاز من ذكره والاستهزاء بمن يدعو إليه كما أخبر عنهم بقوله (وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون)[1].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾[2] صدق الله العظيم، إن لكل قوم وارث، فالمتعلقون بالمذاهب العصرية، والمتجهون إلى روادهم من فلاسفة مذاهبهم وزعمائها إذا سمعوا من يتكلم بتوحيد الله أو يكتب عنه هزئوا به ولقبوه بشتى الألقاب البشعة، لتنفير العوام عنه، وقالوا هذا عدو الزعيم الفلاني والمذهب الفلاني والرائد الفلاني والجنس الفلاني. هذا الرجعي المتحجر المتزمت، ونسوا أنهم قد هربوا من الإيمان الصحيح بالله وانتهجوا الخطط المعادية له، وأنهم هم الرجعيون الذين رجعوا إلى صنوف الجاهلية الأولى، وأنهم هم المتحجرون الذين تحجروا واسعاً وضيقوا نظريتهم وحصروا عملهم على فئة واحدة ووجهة واحدة وتزمتوا لها بحصر انصياعهم إليها وطرح ما سواها، مما أعادوا

---

(١) سورة الزمر، ٤٥.

(٢) سورة الأنبياء: ٣٦.

به العصبية الجاهلية، فهم ألصق بتلك الألقاب التي يصمون بها المتبعين لوحي الله وحكمه، ولكن الملحد الذي يميل به الهوى عن سبيل الله، وتستهويه الشياطين، فلا يبصر الحقيقة التي جاء بها وحي الله لتزكية الإنسانية والارتفاع بها عن التسفل المعنوي الذي استزلتها شياطين الجن والإنس إليه، فوحي الله سبحانه أعطى المسلمين مفاتيح الكنوز المعنوية في الدنيا ومفاتيح الجنان في الدار الآخرة، وهم لم يضيعوا هذه المفاتيح، بل هم محتفظون بها احتفاظاً لفظياً وسطحياً، فهي عندهم محترمة مقدسة، ولكنهم عطلوها عن وظيفتها، فلم يستفتحوا بها تلك الكنوز، لأنهم اكتفوا من نصوص الوحي بألفاظها ومبانيها دون مقاصدها ومعانيها، واكتفوا من سنن الله بأشكالها دون غاياتها، ومن عظماء سلفهم بقبورهم لا بحكمتهم والعمل بمبادئهم وفضائلهم، واكتفوا من القرآن وسائر الكتب بطباعتها وتجليدها والترنم بقراءتها دون العمل بما فيها، فكانوا كالمنسلخ منها لإصرارهم على مصالح خاصة تعارضها والعياذ بالله.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال، قال: رسول الله ﷺ: (إن هذا القرآن حبل الله المتين، والنور المبين، والشفاء النافع، عصمة لمن تمسك به، ونجاة لمن اتبعه، لا يزيغ فيستعتب، ولا يعوج فيقوم، ولا تنقضي عجائبه، ولا يخلق من كثرة الترداد، اقراؤوه فإن الله يأجركم على قراءته بكل حرف عشر حسنات، لا أقول (ألم) حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف).

وليست قراءته المطلوبة هذرمة أو ترنماً يخرجه عن شرف مكانته وعلو رفعته إلى فن الأغاني والمطربات، كما أولع به أهل هذا الزمان، ولا أن تقصر قراءته على المآتم كما يفعلونه في الأحزان، ولا أن يؤول تقديسه إلى أن يجعل تعاويذ يحملها المرضى أو الموسوسون والصبيان فإن الكتاب وكل كتاب لا يرسل لأجل نقوشه ولا لتكييف الأصوات بكلمه وحروفه، ولكن لأجل أن يعلم مراد المرسل منه ويعمل به.

وقد ضرب الإمام الغزالي مثلاً للعاصي إذا قرأ القرآن وكرره، فجعله بمثابة رجل مسئول عند بعض الملوك جاءه كتاب من الملك فيه أوامر وتوصيات هامة فأخذ يكرر قراءته ويقبله ويضعه على رأسه دون أن يعمل بشيء مما فيه.

ذكرنا فيما مضى طرفاً صالحاً من حكم الصوم وفوائده، ونزيدها الآن بمناسبة قوله تعالى: (وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون) وذلك أن الصوم نصف الصبر كما ورد

في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وابن حبان في صحيحه والبيهقي والبزار ورجاله رجال الصحيح. وقد سمى النبي ﷺ رمضان شهر الصبر، كما ورد عنه (وهو شهر الصبر، والصبر ثوابه الجنة، وإنما سمي الصوم نصف الصبر لأن قوى الإنسان ثلاثة: قوة شهوية كالتي في الحيوان وقوة غضبية كالتي في السباع، وقوة روحية كالتي في الملائكة، فإذا تغلبت قوته الروحية على أحديهما كان ذلك نصف الصبر.

وفي الصيام الصحيح يتغلب على القوتين الشهوانية والغضبية.

ولما كان موقف المسلم على الدوام موقف جهاد لقوى الشر الداخلية والخارجية، ومن أكبر عدة الجهاد الصبر وقوة الإرادة، كان الصيام خير وسيلة للتربية على ذلك كما أسلفنا، زيادة على الأجر العظيم غير المحدود، حيث يقول الله: (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب)[1]. وقد قدمنا أن من انهزم في الجهاد النفسي الداخلي لا يصلح للجهاد الخارجي، لأن هزيمته محققة.

وفي الصوم يتحرر الإنسان من سلطان الهوى وسلطان الغرائز، وينطلق من سجن جسده وقيد شهواته، محلقاً بروحه، شامخاً برأسه نحو الله جل وعلا، فليس عجيباً أن لا ترد دعوة الصائم لاقترابه في رحمة الله ورضوانه.

وفي الحقيقة أن أسرار الصيام العظيمة لم يكتشف منها البشر إلا القليل كما قال تعالى: (وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) فحكم الله العظيمة من وراء ذلك الجوع والعطش والانحباس عن الشهوات في مدرسته الشهرية كل سنة لا يمكن إدراكها كلها، ولكن إذا عرف الإنسان حقيقة تكوينه، وأنه ليس مجرد هذا الهيكل المنتصب، ولا هذه المجموعة من الأجهزة والخلايا واللحم والدم والعظم والعصب، وأن للإنسان حقيقة أخرى غير ذلك، حقيقة روحية، وسر من أسرار الله، وجندي خاص يمتاز على سائر الأجسام الأرضية.

فالجوهرة الروحانية التي جعلها الله في الإنسان بها يعقل ويفكر، وبها ينبثق شعوره نحو خالقه، فيتطلع إلى ابتغاء مرضاة الله ليفوز بمدد السماء وحصانة السماء، والنصر العزيز من رب السماء في الحياة الدنيا، والفوز بالملكوت الأعلى في الدار الآخرة.

---

(١) سورة الزمر، آية (١٠).

فالإنسان جسد سفلي وروح علوي: فالجسد بيت والروح صاحبه الساكن فيه. والجسد مطية والروح هي الراكب المسافر فالبيت لمصلحة الساكن والمطية لمصلحة الراكب: فإذا سلم عقل الإنسان الفطري من المؤثرات الشيطانية اتجه إلى الله متبعاً وحيه المبارك.

وفي هذه الحالة يعرف قيمة نفسه ويدرك سر الله فيه، فيؤثر أشواق الروح إلى الله على نوازع الجسد إلى الشهوات، فيكون من خير البرية كما وصفه الله. أما إذا عكس الأمر فجعل روحه عبداً لجسمه ونفسه خادماً لشهواته لما استزلته الشياطين من حقيقته، فهذا صار ممن اتخذ إلهه هواه، وجعل روحه خادماً لجسمه كما قيل:

يا خادم الجسم كم تسعى لخدمته أتطلب الربح مما فيه خسران
أقبل على النفس فاستكمل فضائلها فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

فتنويع الله للعبادة رحمة منه وحكمة لتهذيب النفوس وصقل الأرواح وتصفية العقول وحفظها من نزعات الشياطين، وفريضة الصيام لها أعظم مساس بهذا الشأن لأنها ترتقي بروح الصائم ارتقاء يحفظه من كل انحطاط. والله يعلم وأنتم لا تعلمون.

وقوله سبحانه وتعالى: (وبينات من الهدى والفرقان) يعني بينات واضحات المعاني والمسالك، فالقرآن دستور كامل شامل لنظام الدنيا وخير الآخرة، وصفه منزله سبحانه وتعالى بأنه (هدى للمتقين) في عامة أحوالهم، حتى أن جميع قصصه محتوية على الأحكام والعبر.

وللاختصار أنبه القراء والسامعين إلى سورة واحدة قصيرة أودع الله فيها دستوراً عظيماً للحياة السلمية والحربية، وضمنها من حقوق الإنسان ما لا يستطيعه العقل البشري بجميع منظماته الدولية الممتحنة بشتى أنواع التجارب القاسية، لا منظمة حقوق الإنسان ولا ما هو أعلى منها، فهذه السورة التي سبقتهم بأربعة عشر قرناً إلى أشرف الغايات وأجمل الخصال هي سورة (الحجرات) التي ابتدأها الله سبحانه بتركيز القيادة العامة في المسلمين بوحي السماء تمكيناً لإقرارها في حياة الناس، حيث قال سبحانه: (لا تقدموا بين الله ورسوله) وهذا أخذ بحجزهم من أول الطريق حتى لا يدع لهم شيئاً من الخيرة في أمر الله ورسوله، ولا يجعل لهم حق التقدم عليه بأي أمر أو رأي يعارضه. ولذا جاء النص بصورة تجمع شوارد النفس كما قال في الآية (٣٩) من سورة الأحزاب: (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من

أمرهم).

ثم تأتي بالأمر الصريح بالتزام الأدب كما سنفصله في تفسير تلك السورة.

ثم تركز الثقة بالقيادة وتقطع الطريق على كل من يريد النيل منها أو الإساءة إليها أو يعمل على شيء من الاستفزاز لها أو عليها كما سنوضحه أيضاً إن شاء الله.

وكذلك تركيز التفويض للقيادة ومعالجة كل خصومة بالصلح أولاً، ثم بتأديب الباغي المعتدي ثانياً حتى يرجع إلى رشده محفوظاً له حقه من العدل والقسط، ومحترم في دينه من الطعن فلا يخرج من الدين بمجرد القتال بل هو باق على أخوة الدين، فنزوة الطيش التي سببتها أغراض النفوس لا تخرج صاحبها من الإيمان كما هو واضح من أول السياق وآخره. فأوله (وإن طائفتين من المؤمنين اقتتلوا) وآخره (إنما المؤمنون إخوة).

وقد ترجم البخاري باباً في ذلك كما سيأتي توضيح الجميع بحول الله وقوته.

ثم تركيز مجموعة من الأخلاق الاجتماعية الفاضلة لحماية المجتمع المسلم من التفكك والتصدع وتحصين أواصر الأمة من البغضاء والشقاق والعمل على جمع شمل الأمة بالمحبة والتعارف، والعمل أيضاً على التفاف المسلمين على حقيقة الإيمان وخضوعهم لسلطان الله في كل شيء وارتباطهم به في جميع الحالات. فيا لها من سورة عظيمة قويمة لا يغني عنها جميع مقررات أهل الأرض، بل ولا يأتون بمثلها. ومع هذا نجد بعض مدراء الجامعات العربية من (دكاترة) العرب يرسم في مجلة (العربي) للقومية نقاطاً لا يكتبها إلا أجهل الناس بالقرآن وأبعدهم عنه، بل أجهل الناس بما يجرى في المحيط الدولي الذي يدعونا إلى تعشق مثله العليا – ونحن لا نرى في محيطه إلا المثل السفلى.

من المؤسف أن يتفوه (دكتور) يتبجح بالعروبة ويستظل بالإسلام بهذا الكلام في نقاطه الخمس الهزيلة، وهو يرى المآسي الفظيعة تجري في الدول التي يقدسها كأنه ساكن في غير هذه الكرة الأرضية، لا يسمع ولا يبصر ما فعلته الدول في شرقي (أوربا) والبلقان والجزائر وفلسطين والحبشة والزنجبار، وما تفعله دولة الهند بالمسلمين وفي جبل (بور كلكته) و (كشمير)، وما يجرى على المسلمين في (الفلبين) و (قبرص) وما يجري في أمريكا، وما فعلته (روسيا) من الوحشية المنقطعة النظير، وما فعلته (بريطانيا – في

نواحي – مسقط) بل في نفس بلادها (إيرلندا) وغير ذلك مما يصعب إحصاؤه من المثل السفلى الذين يسميها ذلك الدكتور بالمثل العليا.

فالعرب لم يجعلهم الله صفر اليدين من كل هدى ورسالة حتى يرشدهم أمثال هذا إلى (تعشق المثل العليا الدولية) أو ينصحهم أن يكونوا على صلة دائمة بالعالم حتى لا تنزلق العروبة في (مهاوي الفاشية) على زعمه، مع أنها بعد سنتين من نصيحته الهوجاء انزلقت إلى مهاوى الشيوعية لابتعادها عن صراط الله وأنواره غاية الابتعاد.

فما أعظم خسارة المسلمين عامة والعرب خاصة بإغفالهم كتابهم وانحرافهم عنه، مما جعلهم بعد السيادة والقيادة في رق معنوي وسكر معنوي يتردون بسببه في انحطاط خلقي سحيق وسبات من التقليد عميق.

وما أعظم خسارة العالم كله بإضاعة العرب والمسلمين مملكة الرحمن وهدي القرآن الذي شرفهم الله به مستجيباً لدعوة أبينا إبراهيم عليه السلام.

فلنتساءل جميعاً عن موقفنا من القرآن الذي قال فيه منزله جل وعلا: (لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون)[1]. هل تلوناه حق تلاوته بإقامة حدوده وحمله إلى جميع البشرية المتعطشة إلى دين يحجبها من الانحلال ويغذيها بأشرف الخصال؟ هل عرفنا ميزتنا بالرسالة وشكرنا ربنا عليها شكراً عملياً هو القيام بالواجب لنحقق الذكر الحسن؟ أو على العكس سفهنا أنفسنا واستخففنا بواجبنا، فلم نعره اهتماماً، اقتداء باليهود، فاشتركنا معهم بالمثل السيئ الذي ضربه الله لهم، إذ قال: (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً)[2].

بالله عليكم أي فارق بينهم وبين من ترك العمل بالقرآن وأضاع حدوده ومزقه تمزيقاً معنوياً بعزله عن التشريع وإقصائه عن الحكم، وحرم نفسه وأهل الأرض جميعاً من الاهتداء به، فلم يبلغ رسالات الله على ضوئه؟ ما الفرق بين اليهود وبين من هذه صفاته؟ إنهم يلبسون على الناس بشتم اليهود ودعوى محاربتهم، بل هم والله لا يظهرون شتم اليهود ولا محاربتهم وإنما يشتمون أو يحاربون من يسمونهم (صهاينة) ليبقى اليهود

---

(١) سورة الأنبياء، آية ١٠.

(٢) سورة الجمعة، آية ٥.

في مأمن عن شتمهم وحصانة من حربهم. وهل يوجد يهودي على وجه الأرض لا يسند الدولة المسماة (إسرائيل) حتى يجوز أو يسوغ لهم ذلك؟.

أيها المسلمون: إن مسئوليتنا كبيرة، وإنها والله من الخطورة بمكان عظيم، تأملوا أيها المسلمون إذا كان الذي يقرأ الكتاب لمجرد التلاوة ويعطل أحكامه، مثله كمثل الحمار، فكيف حال من لا يقرأه ولا يعيره اهتماماً؟ بل يراه كتاباً رجعياً بالياً ويعتبره أوراقاً صفراء مدعاة للتخلف، زاعماً أنه لا يوافق حال العصر،ويعكف على قراءة الكتب المادية من الشيوعية وغيرها مما تقذف به دور الطبع والنشر الحديثة من المصورات الخليعة والأقاصيص الماجنة والمقالات الإلحادية، ويعمر الملاعب والنوادي ودور اللهو المختلفة بدلاً من المساجد.

أليس حال هذا شر ممن ضرب الله لهم المثل السيئ أم لا؟ وهل هو بحالته البهيمية أحسن من مستوى الكفار الذين قال الله فيهم: (والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم)؟[1].

لقد أثبتت التجارب أن طلب العلوم والفنون مع إهمال النفس عن التربية الدينية المحمدية لا يجدي نفعاً ولا يحل مشكلاً، بل يتكون منه عالماً مادياً لا هم له سوى النفعية والوصولية بأي شيء كان وعلى أي حساب كان. وما هذا التسابق في التسليح والانهماك في صنع ما يدمر المدنية إلا من خراب الضمائر بسبب ابتعادها عن هدى رب العالمين.

أيها المسلمون: التفتوا إلى سلفكم الصالح تجدوا أحدهم يحمله بعض سور من القرآن أصلح ما أفسده الفرس والروم وفتح القلوب قبل أن يفتح البلاد.

نعم فتح القلوب بحفاظه على الأنفس والأموال والأعراض، دون استئثار بشيء، أو طمع في منصب أو لقب. وانظروا أهل زمانكم وما ضاع ويضيع بينهم من أموال وكرامة، ويهتك من عرض، ويراق من دم، وإذاعاتهم تتبجح بالحرية وخدمة الشعوب إفكاً وتضليلاً. ويكفي إلقاء نظرة على ما تفعله بعض الحكومات الفتية من إضاعة الأموال الطائلة في أعياد رسمية ومراسيم شكلية، وما يذوقه معارضوهم من أنواع

---

(١)سورة الأعراف، آية ١٧٥.

التنكيل، لتعرفوا كيف دفعت الأمة ثمناً غالياً لإضاعة القرآن.

أما العرب المسلمون الذين صلحت ضمائرهم بالقرآن فقد ترفعت أنفسهم عن المادة وطهرت أخلاقهم عن تسخير الشعوب والجناية على عقولها واللعب بمقدراتها، لأن القرآن حداهم إلى العدل والإحسان والصدق والرحمة، فقضوا بالحق وأطلقوا الفكر حراً، لا تقيده الأوهام المصنوعة، ولا تستره حجب الأباطيل التي تقذف بها وسائل النشر المختلفة.

أيها المسلمون: لقد سيطرت الثقافة الاستعمارية على أدمغتنا وجعلتنا كأبعد الأمم عن القرآن الذي أنزل علينا وفي لغتنا، فأدخلت فينا عصبية الجنسية التي حرمها الإسلام وشدد في منعها بعد أن أضعفوا العلم والدين فينا.

وقد بذلت الماسونية اليهودية بواسطة الاستعمار جميع الوسائل في تركيزها بأذهان الناشئة والرعاع، لأنهم يرون فيها نقضاً لعهد الله في اتباع ملة إبراهيم، وقطعاً لما أمر الله به أن يوصل من الميثاق الإسلامي الذي يربط العربي بالأعجمي والمشرقي بالمغربي كما شرعت أركان الإسلام كلها من أجله، لولا ابتعادنا عن القرآن لما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

فالواجب على كل من يعتز بعروبته أن يجعل منها أكبر حافز له على أخذ القرآن بقوة، وحمله بالتبليغ الصحيح العام الشامل، كما أمر الله، ليكون محققاً لعروبته الصالحة، وانتسابه لذلك النبي الكريم ﷺ، فيكون مرضياً لربه الذي أنعم عليه بذلك، ويكون مكرماً لنفسه، غير مهين لها، ولا مستخف بها، فإن من لم يحمل القرآن حملاً صحيحاً إلى جميع المعمورة حسب استطاعته فقد سفه نفسه ودساها بنبذه لرسالات ربه، وكان باستجابته لداعي الغي كاذباً في جميع مزاعمه، قد صدق عليه إبليس ظنه، فكان من أتباعه وكسبه.

حقاً إن المستجيب لداعي الغي إذا واصل استجابته بإصرار انسلخ من القرآن، فكان من أتباع الشيطان، مستحقاً أسوأ مثل ضربه الرحمن، ولو بلغت به دعاية المديح والتهريج مبلغاً عظيماً وحاز من الشعبية وصنوف الألقاب ما حاز، فإنه لا يرتفع عما وصفه به الخلاق العظيم. وكيف يرتفع من وضعه الله بسبب قصور همته ونقص إيمانه عن حمل رسالة ربه؟ كيف يرتفع من أبى أن يشرف نفسه بالكتاب الذي شرفه الله به

فاختار الضعة لنفسه باقتفائه ما رسمه له أعداء الله وأعداؤه؟

إن من جعله الله بهذا المثل السيئ لا ينفعه ما يسدي عليه البشر من ألقاب، ولا يرتفع برفعة مركزه عن ذلك، بل يأخذه الغرور برفعة الشأن الخلابة، فيتمادى في إعراضه عن القرآن واستهجانه لوحي رب العالمين حتى ينحط إلى مثل أسوأ وأسوأ، وهو المثل الذي ضربه الله أيضاً لمن أوتي الكتاب فانسلخ منه واستبدله بتقديس الجنس والوطن، فجعله الله بهذه الغواية بمثابة الكلب، حيث قال جل وعلا: (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين)[1]. ذلك أن الشيطان ليس سلطاناً على عباد الله المخلصين له قصداً وعملاً (إنما سلطانه على الذين يتولونه): فأخبرنا الله عمن هذا شأنه أنه لاستجابته لوساوس الشيطان واطمئنانه لطاعته استولى عليه فتخلى الله عن نصرته فلم يرفعه بتلك الآيات التي انسلخ عن العمل بها، فلذا قال سبحانه: (ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه) بانسلاخه عن وحي رب العالمين (أخلد إلى الأرض واتبع هواه) فكانت رغبته ومنتهى عزيمته في الأرض تقديساً للجنس والوطن، رغبة منه في المادة، وتعلقاً بالأنانية والأغراض النفسية التي هي مصدر عبادة الهوى والغواية (فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث).

تالله إن هذا المثل منطبق على أهل هذه الصفات من المعرضين عن القرآن إلى أبد الآبدين، إذ الواقع المحسوس يشهد بذلك، ففي الماضي يقص التاريخ كثيراً من هذيان الذين اقتصروا على إرادة حرث الدنيا وأعرضوا عن كتاب الله، وفي الوقت الحاضر تكاد تصم الآذان من كثرة سخفهم وصيحاتهم الوحشية في الإذاعات، كل منهم يدعو إلى معسكره ويشتم الفريق الآخر، وإذا سكت فريق لم يسكت الفريق الآخر.

فهذا المثل الرائع هو من معجزات القرآن الخالدة، إذ جميع الصفات الكلبية الخسيسة موجودة فيمن انسلخ عن وحي رب العالمين، لأنه محروم من الآداب القرآنية الجليلة، فالتصقت به خسائس الصفات الكلبية، حتى فيما نحبذ تنزيه أقلامنا عن ذكره.

وبما أنه جرت سنة الله الكونية التي لا تتغير ولا تتبدل بأن أصحاب المخالفات إذا

---

(١) سورة الأعراف،١٧٦.

تمادوا في غيهم ولم يؤوبوا إلى رشدهم، تكون عاقبتهم التكذيب بآيات الله والاستهزاء بها، فإني أربأ بالمسلمين من التمادي في انحرافهم عن تعاليم القرآن وتحكيمه خشية أن تحيق بهم هذه العاقبة السيئة كما حاقت بغيرهم، فيكونوا من أهل هذا المثل السيئ الثاني الذي هو أسوأ من الأول وأفظع، قال الله تعالى: (ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوء أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزؤون)[1] فلنتفكر جيداً في موقفنا من القرآن، هل هو موقف سلبي فقط؟ أو موقفنا موقف النابذ له.

لنحذر أن نكون ممن ابتغى غير الله رباً أو افترى عليه الكذب، فإن الله توعد نبيه وحبيبه محمداً عليه الصلاة والسلام بمضاعفة العذاب في الدنيا والآخرة إن هو ركن إلى الكفار شيئاً قليلاً في طلبهم منه الجنوح إليهم بعض الشيء ليتبعوه، فاعتبر الله إجابتهم افتراء عليه. فكيف بحال من يركن إليهم شيئاً كثيراً؟ قال تعالى: (وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره وإذاً لاتخذوك خليلاً. ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً)[2] أي لو ركنت إليهم ذلك الركون القليل الذي يدنيك منهم ويرضيهم نصيراً) أي لو ركنت إليهم ذلك الركون القليل الذي يدنيك منهم ويرضيهم لضاعفنا العذاب المعجل في الحياة الدنيا، وضاعفنا لك العذاب الذي يعقب الموت من عذاب القبر وعذاب النار، ثم من ذا الذي ينصرك؟ لن تجد لك علينا نصيراً.

(فيا أمة القرآن) إن في هذا الوعيد الشديد دليل قاطع على أن أدنى مداهنة للكفار أو انصياع لتقليدهم هو مضادة لله، وخروج من ولايته، وسبب موجب لغضبه، وقد صدق علينا هذا الوعيد بزيادة ركوننا إليهم ومداهنتنا لهم. فما هذه الكوارث والنكبات المتلاحقة التي حلت وتحل بالمسلمين في كل زمان ومكان إلا من غضب الله علينا بذلك وتنفيذه وعيده بمضاعفة العذاب في الحياة، فمتى نؤوب إلى الله ونعطي القرآن حقه ليرفعنا الله مما نحن فيه؟

قال في الكشاف (فعلى المؤمن إذا تلا هذه الآية أن يجثو عندها ويتدبرها، فهي

---

(١) سورة الروم، آية (١٠).

(٢) سورة الإسراء، آية (٧٣ – ٧٥).

جديرة بالتدبر وبأن يستشعر الناظر فيها الخشية وازدياد التصلب في دين الله).

وأقول: هذا واجب المؤمن الذي يتلو القرآن حق تلاوته كما أمره الله، ففيه ما يهيج النفوس ويثير العزائم، ولو ظهرت قلوب المسلمين من أمراضها، وأخلصوا دينهم لله، لعرفوا قيمتهم وواجبهم أمام القرآن إذا تلوا هاتين الآيتين فقط، وهما قوله تعالى: (فاستمسك بالذي أوحى إليك إنك على صراط مستقيم وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون)[1].

أليس من المؤسف أنهم عالة على غيرهم في كل شيء؟ أليس من المؤسف المبكي أن أغلب أولاد المسلمين في حاجة ماسة إلى لغات الأجانب، ولو استمسكوا حقاً بكتاب ربهم وحملوه كما أمر، لطبقت لغتهم ما بين الخافقين، ونطق بها جميع أهل الأرض عن حب ورغبة، فحققوا عزهم وذكرهم الذي اختاره الله لهم، وكان لهم السؤدد والقول الفصل في هذه الحياة بدلاً من حالتهم المعكوسة التي نالوا بها مضاعفة العذاب في الحياة.

أيخفى عليهم ما للغة من تأثير عظيم في الدين والأخلاق والعقول؟ خصوصاً لغتهم.

حقاً إن من لم يرتض القرآن دستوراً بمعنى الكلمة لابد له من ابتداع شيء أو اقتفاء شيء من وضع البشر، فيكون ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام وأحكامه، وهذا من أظلم الظالمين، فيكون عرضة لعقوبات الله المتنوعة كما قدمنا ذكر الوعيد الشديد على ذلك، وقال تعالى في مزيد التهديد: (سيجزيهم بما كانوا يفترون – سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم – سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين). وكل هذا قد حاق بنا والعياذ بالله.

لقد أورثنا سوء موقفنا من القرآن الكريم انحطاطاً عاماً في كل شيء، وجعل العاطفة علينا مسيطرة لا تجري إلا على فاقد التمييز، وجعلتنا كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران يتأرجح بين جحيم المبادئ الهدامة، وبلغ بنا الانحطاط إلى أن جعلنا نقلد أعداءنا في الرذائل، ونقصر عن لحوقهم في المخترعات وكسب الأسواق

---

(١)سورة الزخرف، آية ٤٣.

والنفوس، حتى صرنا في مهوى لا يجوز تسميته إلا ب- (سقوط النفس)، وهذا من بعض عقوبات الله القدرية لمن أعرض عن وحيه وهداه. وفي مثل هذا يقول الشاعر عبدالحق حقي البغدادي في قصيدته المسماة (أعجب العجب من أحوال العرب) بعد ما أشاد بأمجاد الأسلاف في فصله الأول الذي سماه (ماضيهم المنيف أو مظاهر رضا الجبار عنهم). قال في أوائل الفصل الثاني الذي سماه (حاضرهم المخيف أو مظاهر غضب القهار عليهم):

يا أمة ذاك ماضيها الذي عرفت ... منه بمجد صريح غير مؤتشب
ماذا دهاك؟ فقد أصبحت هاوية ... مهاوي الذل من جبن إلى عطب
بما ابتليت وماذا قد منيت به ... فصرت من بعد خفض العيش
ما السحر أسوأ مساً لو سحرت ... مما دهاك فساوى الرأس بالذنب
والسحر ليس له فعل ولا عمل ... يحكى انقلابك من رأس إلى
قذفت بالمجد في مهوى لو ... فيه النجوم غدت فحماً بلا لهب
مهوى من الذل نائي الغور ممتلئ ... من المصائب بالأرزاء والنوب
قد انسحبت عليه شر منسحب ... بما اكتسبت إليه شر مكتسب
وبت في نوب للظهر قاصمة ... لم يذكروا مثلها في سائر النوب
فالجسم في شلل والعقل في خلل ... والقلب في نصب والروح في
والله ليس بظلام لأعبده ... فلا يغير من حال بلا سبب
قد كنت تاجاً لأجيال الورى ... فصرت من بعد تلك الجيل في
وكنت موفورة الخيرات صاعدة ... بالدين ذروة مجد غير منسحب
فصرت أسفل سفلاها كما ... بالخسف ذروة طود شر منقلب
وكنت هذبت أخلاق الورى زمناً ... واليوم منك سوى الأخلاق لم
وكنت آمرة المعروف قائمة ... بالنهي عن منكرات السوء في
فصرت أنت عن المعروف معرضة ... وصرت للمنكر المذموم في طلب
وكنت حررت من ظلم ومن عنت ... قوماً من الظلم والظلام في نصب
فاليوم تظلمك الدنيا بأجمعها ... ولا يهيجك هياج إلى الغضب

وكنت أنقذت من جهل ومن ... بنى جهالتها الهاوين في الريب
واليوم أنت أبو جهل وزدت به ... زيادة الحمق في حمالة الحطب
لئن رجعت إلى الطاعات من ... لتظفرن بحول الله من كثب
وإن بقيت على ما أنت فيه فلا ... مفر من نقمة الجبار والتبب
شر بشر ومن يعمله يلق ومن ... يزرع من الشوك لا يحصد من

فيا أمة محمد عموماً ويا من يعتز بعروبته خصوصاً غيّروا موقفكم من القرآن إلى موقف حسن وأحسن يليق بكرامتكم ويصدق انتسابكم إلى هذا النبي الكريم واعتزازكم بحقيقتكم ولغتكم الحبيبة لغة القرآن فهو المنجى لكم.

نعم إن وحي الله العزيز هو المنجي الوحيد والعاصم الفريد من جميع الأفكار الهدامة التي تفاقم شرها في هذا الزمان، وعصفت بالاستقلال الفكري لكثير من الناس، وصادرت عقولهم بسبب فراغها من وحي الله الذي يحميها ويعصمها منهم، فوحي الله فيه الهداية الكافية والشافية والمنجية والعاصمة من جميع مصائد شياطين الإنس المفسدين للعقول والجانين على الفطرة، وفيه البينات الواضحات من الهداية الصحيحة العامة، والعرفان الذي يفرق بين الحق والباطل، ويفصل بين الرذائل والفضائل فصلاً واضحاً لا مرية فيه، ولهذا أبان الله الحكمة في تخصيص شهر رمضان بشريعة الصيام بقوله: (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن..) حيث اختاره من بين الشهور، فأنزل فيه أول ما أنزل من القرآن الذي فيه الهداية العامة للناس ومعجزة الهداية تثبت بنفسها أن هذا القرآن ليس صنع أحد من البشر قطعاً، فليس من إنشاء محمد ﷺ وابتكاره وليس من ثمرة عبقريته وذكائه، لكونه أمياً لا يقرأ ولا يكتب، كما قال عنه الله سبحانه وتعالى (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون)[1]، ولكونه منعزلاً قد فطمه الله من مصاحبة القصاصين أو غيرهم من علماء الكتابيين.

وقد حاول المستشرقون أن يخلقوا له صحبة مع الرهبان في سفره إلى الشام بالتجارة مضارباً لخديجة بنت خويلد، وقلدهم بعض الكتاب الذين قبلوا مصادرة

(١) سورة العنكبوت، آية (٤٨).

عقولهم، فزعموا أنه انتفع بهم، ولو فكروا بعقول استقلالية لعرفوا أن عند الرهبان ونحوهم من الكبرياء ما يجعلهم يكتمون العلم عن بني نحلتهم، فضلاً عن غريب مستطرق من العرب.

فنصوص القرآن شاهدة بكليتها على أنها ليس فيها شيء أبداً من قول محمد ﷺ، وأنه أمين لم يترك تبليغ شيء مما أنزل إليه من ربه حتى ما فيه معاتبته ولومه الشديد، فهو حجة قاطعة له ﷺ، ودليل خالد على صدقه في دعوى النبوة، وفرقان القرآن واضح في التفرقة بين الحق والباطل، فهو يبين الحق، ويوضح معالمه، ويفصل آثاره وثمراته الطيبة بما يدعو إلى الاستجابة إليه والتمسك به، ويكشف عن الباطل، ويفضح مساويه ويحذر من أضراره ومفاسده، تحذيراً يدعو إلى رفضه واجتنابه، فالآية تشير إلى أن هذا الشهر المبارك الذي فضله الله وشرفه باختيار إنزال هذه المكرمة إلى الإنسانية وهي (مأدبة القرآن الروحية)، تلك النعمة العظمى والمكرمة الكبرى التي لا يفضلها شيء، يجب أن ترعى حرمته، وأن تحيا ذاكره في العالم الإسلامي الكبير، فلذلك شرع فيه وجوب الصيام الحتمي، وذلك تشريع يناسب هذه المكرمة الرفيعة ويتفق مع أهدافها وغاياتها، والحكمة من إنزالها، لأن القرآن هدى ونور يحث على التقوى والصبر والجهاد وضبط النفس والأعصاب عن كل شهوة جامحة مضرة بالعقيدة أو الأخلاق، ويأمر بالرحمة والعدل والمساواة وحسن المعاملة ونزاهة الضمير والتزام الصدق والصراحة والإخلاص في القول والعمل وتطهير النفس من شوائب النفاق والغش والخداع، فناسب أن يكون شهر رمضان هو شهر الصيام ليتم شكر المسلمين لله فيه على هذه النعمة الكبرى ولينطبع المسلم بأخلاق القرآن فيه إذا توفرت حكمة الصيام، لأن الصيام يبعث صاحبه على الصدق والإخلاص والإحسان والرحمة ومراقبة الله، وينمي في النفس قوة الإرادة وصدق العزيمة ورباطة الجأش، لأنه يمرنها على الجلد والصبر في مكافحة الشدائد والملمات، وعلى جمع الهمة وبذل الجهد لتذليل الصعاب، والتغلب على النوائب والعقبات، فالصيام إذا استوفيت مقاصده كان أحسن مبصر بحكمة نزول القرآن، وخير مساعد على الاهتداء بهديه وتنفيذ أحكام الله فيه.

وإذن فمن جملة الحكم لصيام رمضان أنه إحياء سنوي مجيد لذكرى نزول القرآن الذي هو من أعظم النعم والمكرمات لهذه الأمة، ليكون صيام هذا الشهر من القيام

بالشكر العملي على ذلك.

وقد كان الرسول ﷺ يبشر أصحابه بقدوم شهر رمضان ويعنى بتعظيمه والاحتفال به بكثرة العبادة والجود ومدارسة القرآن حتى أنه يكون فيه أجود بالخير من الريح المرسلة، وكان يحض أمته على بذل المجهود في العبادة والجود بالخير، وكان يعرض القرآن على جبريل أمين الوحي، وفي آخر سنة من عمره عرضه عليه مرتين للدراسة، فما أعظمها من مناسبة.

هذا وقد أوضحت فيما مضى أسرار الصيام وفوائده الروحية والاجتماعية والصحية مما ظهر لي، وقد يكشف الزمن أسرار لم يحط بها أحد، فالاكتشافات الطبية تتقدم وكذلك غيرها، كما قال تعالى: (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق، أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد)[1].

وحكم الله عظيمة بالغة لا تقف عند حد، فلنتأمل حكمة الله من وراء ذلك الجوع والعطش الذي يستوي في حكمه القوي والضعيف، والغني والفقير، والزعيم الكبير والفرد الحقير، والواجد والمعدم، كلهم في حكم الصوم والإفطار سواء، عدل من الله في حكمه، وتعليم لعباده على العدل والمساواة، كما أن في ذلك تكويناً للعاطفة والرحمة في النفوس كما أوضحته سابقاً، وإيجاداً لدواعي الشكر بالبر والإحسان. فالمجتمع الذي تنبت فيه العواطف وينتشر فيه البر والإحسان والرحمة والحنان، هو المجتمع الصالح السعيد، لا يتحقق كاملاً إلا بالصيام، مع أن في الصوم حصانة من الشر ومن الوقوع في الرذيلة، كما ورد عنه ﷺ: (إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجاريه بالجوع والصوم) رواه البخاري ومسلم والإمام أحمد وأبو داود وغيرهم، وكما رووا أيضاً عنه ﷺ أنه قال: (يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء). والوجاء هو تفتير الشهوة.

وبما أن عبودية الله لا تكمل إلا بتمام التسليم وكمال الانقياد والتنفيذ، فما أظهر هذا التسليم والعبودية الكاملة في الصوم كما مضى في تحقيق الأمانة.

---

(١) سورة فصلت، آية ٥٣.

والله الموفق.

وليعلم أن هذه الآية الكريمة (هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان) وغيرها من قوله سبحانه (تلك آيات الكتاب المبين – قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين – قد جاءكم بينة من ربكم وشفاء لما في الصدور) مما يوضح أن جميع القرآن آيات واضحات وعلامات كاشفة للحقيقة ليس فيها غموض أبداً.

وهذا مما يبطل مزاعم أهل الباطن الذين اختلقوا حديث (إن للقرآن باطن وللباطن باطن إلى سبعة أبطن)، ويفسرون القرآن بغير المعروف المشهور من معناه، ويزعمون أن علياً رضي الله عنه قال: لو شئت لأوقرت من تفسير الفاتحة كذا وكذا حمل بعير من علمنا الباطن. وهذا الحديث مكذوب على النبي ﷺ باتفاق علماء الحديث ولم يرو بأي سند، وكذلك الأثر عن علي مكذوب قطعاً، ولكن يروى عن الحسن البصري موقوفاً أو مرسلاً: إن لكل آية ظهراً وبطناً وحداً ومطلقاً، وقد أشاع زنادقة المبتدعة علم الظاهر وعلم الباطن بما ليس معروفاً في عصر النبوة ولا في عصر السلف الصالح وإنما هو من سر الماسونية اليهودية على يد أفراخها العبيديين بني القداح اليهود الكذبة الذين انتحلوا الفاطمية فهم الذين تأولوا شرائع الإسلام وأبطلوا العمل بها. وقد فضحهم الإمام الغزالي وابن تيمية وغيرهما.

لقد أودع الله بالقرآن ما يبني الإنسانية بناء محكماً لا يتصدع أبداً ما دام هو الرباط الحديدي المعنوي المشتبك فيه، لأنه أمد أهله بجميع عناصر القوة في الحياة، من القوة في العقيدة، والقوة في الأخلاق، والقوة في العلم النافع بأنواعه الروحي والمادي، والقوة في المال، والقوة في التكاتف الاجتماعي، والقوة في الزحف الحربي المتواصل، والقوة في التنظيمات السلمية، وأوجب عليهم بكل تحتيم وتشديد أن يرخصوا النفس والمال في سبيل الدفع بالعقيدة والرسالة إلى الأمام، فضلاً عن الذود عنهما، وجاء بتقويم الأخلاق وتحصينها من الانحلال.

وقد قرر التاريخ أنه ما ارتفعت أمة إلا بقوة أخلاقها واستقامتها في سيرها وسلوكها واعتدالها في تعقلها وتفكيرها وتقديسها للمعاني الروحية والقيم الروحية، وما سقطت أمة إلا بفقد ذلك، والأمة المستكملة لعناصر القوة المذكورة هي التي يتماسك بنيانها ويرتفع شأنها وتعظم سيادتها ويرهب كيانها، وعلى العكس فاقدة تلك العناصر،

فإنه لا يعلو شأنها إلا على من هو أحط منها، وكلما ابتليت بحرب تحطمت وانهارت، وفي الوقت الذي تمسك المسلمون بالقرآن نجحوا أعظم نجاح فبهروا العقول.

ومن أعظم آثار وحي الله في أهله، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي جعلهم لا يخافون في الله لومة لائم، فيأطرون السفهاء ويقومون أود السادات ويحوطونهم دائماً بما يخيفهم من قوارع النصح والتهديد المزعج لقلوبهم من عقوبات الله وإيضاح قيمتهم ومكانتهم. فلما انحرف المسلمون عن تعاليم الوحي دب فيهم النفاق والمداهنة خوفاً من المخلوق وتهاوناً بالخالق العظيم، حتى انعدمت شعيرة الأمر بالمعروف من مجتمعهم، وماتت فيهم الغيرة على حرمات الله، وانطفأت منهم جمرة الغضب لدين الله، ففسدت أخلاقهم، وقل العلم الصحيح فيهم، وأصبح الأمر لأدعياء العلم أو للأئمة المضلين، وصار التقى الفريد منزوياً أو مطموراً، وبخلوا على الله بما أوجب عليهم بذله من النفس والمال، وقد سبب عليهم بخلهم بذلك تسلط الأعداء عليهم من كل ناحية، واللعب بمقدراتهم ردحاً من الزمن، ولم يستقلوا إلا على حساب دينهم وأخلاقهم، حيث هيأ المستعمر من يخلفه بحكم مخالف للدين، بل كثير من المسلمين حكمتهم دول نصرانية بعد الاستعمار باسم الوطنية، وصاروا يدفعون ضريبة الكنائس التي يتجمع منها أموال طائلة للقسس والرهبان الساعين ضد الإسلام. فهذا هو الثمن الغالي الذي دفعوه بالإعراض عن حمل رسالتهم وتوزيعهم هداية القرآن شحاً على الله بالمال والنفس، فصار مالهم عوناً لأعدائهم، وصارت أنفسهم في رق معنوي أفظع من كل رق حسي.

هذا وينبغي أن يعلم أن شهر رمضان حصل فيه ابتداء نزول القرآن، وليس المقصود نزوله إلى اللوح المحفوظ ونزوله منه تدريجياً، فإن القول بذلك يجعل بني إسرائيل بمنزلة محمد ﷺ لأن موسى تلقى الألواح من الله، وهم تلقوها منه، بل يكون بنو إسرائيل بمنزلة جبريل على هذا القول والعياذ بالله، والله يقول (وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم)[1].

فينبغي اعتقاد أن جبريل تلقى القرآن من الله وأوحاه إلى محمد ﷺ رأساً وأنه لم

(١) سورة النمل، آية ٦.

يأخذه من اللوح المحفوظ، وهذا لا ينافي رواية ابن عباس لأن كل شيء ومقدور يكون في اللوح المحفوظ ولا يلزم منه انحصار مهمة جبريل على الأخذ منه أبداً.

روى البخاري ومسلم وغيرهما من أصحاب السنن والمسانيد عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: (بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان). ورويا أيضاً عن أبي هريرة أن أعرابياً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله دلني على عمل إذا عملته دخلت الجنة: قال: تعبد الله لا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان. قال: والذي نفسي بيده لا أزيد على هذا. فلما ولى قال النبي ﷺ: من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا).

قال المحققون في هذا الحديث وأمثاله كحديث الأعرابي النجدي الذي قال الرسول عليه الصلاة والسلام فيه: (أفلح إن صدق) أنهم سألوا النبي ﷺ فأجابهم عن المفروض من الإسلام في وقت السؤال، فصمموا على العمل به بصدق وإخلاص استحقوا به ما قاله النبي ﷺ فيهم.

ومن كانت هذه حاله فلا بد أن يعمل بما يستجد من الشرائع، كالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإقامة الجهاد لنشر الدعوة، وتحريم الزنى والخمر وغيره، فمن لم يعمل بما يستجد من الشرائع لم يكن مفلحاً ولا من أهل الجنة، بل لا يكون مسلماً حتى يمتثل جميع المأمورات دون إنكار أو انتقاص. فليس الأمر مقصوراً على ما ذكر في الحديث.

وروى الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: (قال الله عز وجل: كل عمل ابن آدم له، الحسنة بعشر أمثالها، إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به، ترك طعامه وشرابه من أجلي، والصيام جنة، فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابه أحد أو قاتله فليقل إني صائم، والذي نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، للصائم فرحتان يفرحهما: إذا أفطر فرح، وإذا لقي ربه فرح بصومه).

وفي رواية مسلم: (كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، قال الله تعالى: إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به...).

وروى الشيخان عن سهل بن سعد عن النبي ﷺ قال: (إن في الجنة باباً يقال له الريان، يدخل منه الصائمون يوم القيامة، لا يدخل منه أحد غيرهم، فإذا دخلوا أغلق فلم يدخل منه أحد).

وروى الشيخان أيضاً بسندهما إلى النبي ﷺ قال: (من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه).

هذا ما أحببت ذكره من الأحاديث الصحيحة في الصيام بكل اختصار.

وقال الناظم محمد بن عبدالقوي في نظم الفقه:

وخذ باحتفاظ الصوم غير مقتصر ... عبادة سر ضد طبع معود
واصبر لفقد الإلف من حالة الصبا ... وفطم عن المألوف والمتعود
فثق فيه بالوعد العظيم من الذي ... له الصوم يجزي غير مخلف موعد
وحافظ على شهر الصيام فإنه ... لخامس أركان لدين محمد
تغلق أبواب الجحيم إذا أتى ... وتفتح أبواب الجنان لعبد
تزخرف جنات النعيم وحورها ... لأهل الرضا فيه وأهل التعبد
وقد خصه الله العظيم بليلة ... على ألف شهر فضلت فلترصد
فأرغم بأنف القاطع الشهر غافلاً ... وأعظم بأجر المخلص المتقيد
فقم ليله واطوي نهارك صائماً ... وصن صومه عن كل موه

قال تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [من سورة البقرة].

فيه إعادة لذكر الرخصة بعد تحديد شهر رمضان الشريف الفاضل، وتركيز عظمة منزلته في قلوب المؤمنين؛ بإنزال القرآن وتعظيم أمر الصوم المفروض، والندب إلى التطوع به، وإن صيام هذا الشهر محتم على القادرين الذين لا رخصه لهم، وإن الرخصة فيه غير محمودة، بل تحشم الصيام خير منها فبعد هذا كله أعاد ذكر الرخصة لفائدتين:

(إحداهما) أن لا يتوهم متوهم أن الفطر للمريض والمسافر خير وأولى اعتماداً على قوله سبحانه: (وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون)، بل أعاد الأمر بالرخصة

للتوكيد، حتى لا يجد المتقي لله حرجاً منها، فقد كان بعض الصحابة رضوان الله عليهم يتحامون من الفطر في السفر مع توكيد الرخصة، حتى أنهم في بعض الأسفار لم يمتثلوا تحرجاً من الإفطار بعد أمر النبي ﷺ لهم حتى أفطر بنفسه، وسمى الممتنع عن الإفطار عاصياً. كما ورد النص الذي أسلفناه بذلك، فهذا من بعض أسرار التأكيد في هذه الآية.

(ثانيهما) لئلا يتوهم متوهم أن الرخصة منسوخة. ولهذا جاء بالتأكيد الآخر بقوله تعالى: (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) يعني يريد الله أن ييسر عليكم طريق الوصول إلى طاعته ورضوانه لتفوزوا بنيل ما وعدكم به من صنوف النعيم، بجنانه، فيسهل عليكم شرائعه أحسن تسهيل بحيث لا يجد المسلم المؤمن حرجاً في أدائها، وإذا حصل إثقال بعضها لسبب من العوارض الموجبة سهله تسهيلاً آخر، إما بإسقاطه أو تخفيفه، كما هو مفصل في أبوابه من فقه الأحكام في جميع الكتب المختصة بذلك.

ففي هذه الجملة من الآية الكريمة تعليل لما قبله يتضمن أن الله يريد فيما شرعه من هذه الرخصة في الصيام وغيره مما يشرعه لكم من جميع الأحكام أن يكون دينكم يسراً كله لا عسر فيه، وفي هذا التعبير القرآني ضرب من الترغيب في إتيان الرخصة، ولا عجب في ذلك فقد ورد الحديث عنه ﷺ أنه قال: (إن الله يحب أن تؤتى رخصه يحب أن تؤتى عزائمه).

وفي هذه الآية من بديع التركيب والتعبير ما يشهد بإعجاز القرآن، وأنه منزل من الله على محمد عليه الصلاة والسلام، فإن الفاء في قوله: (فمن) وقعت جواب الشرط مفصلة لما أجمله الله في قوله (شهر رمضان) من وجوب التعظيم المستفاد منه وجوب الصوم على كل مدرك لرمضان من حاضر ومسافر، و (من) هنا لدفع توهم التعميم، أي فمن كان حاضراً فليصم، إذ لا يحسن أن يقال: (من علم الهلال فليصم – وشهد من الشهود والتركيب يدل على الحضور إما ذاتاً، أي علمه بنفسه أو علماً جاءه خبره كما مضى تفصيله، و(الشهر) للعهد ووضع المظهر موضع المضمر للتعظيم، والمفعول به متروك لعدم تعلق الفرض به، إذ تقدير البلد أو المصر ليس بشيء، ونصب الضمير المتصل في (فليصمه) على الاتساع لأن صام لازم، والمعنى: فمن حضر في الشهر أو من علم بهلال الشهر وتيقن وهو مقيم غير مسافر فليصم.

ومن الفقه في هذه الآية أن من شك في الهلال لوجود حائل فالصوم لا يجب عليه بل يمنع منه، كما قال الأكثر، أو يباح احتياطاً كما صامه بعض الصحابة، وجوزه النعمان والشيخ ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ونحوهم، وتكرير الرخصة للمريض والمسافر في هذه الأمة للتخصيص ودفع الإيهام، وذلك أن الله لا يريد إعنات العباد والإشقاق عليهم بأحكامه، فالآية مشعرة بأفضلية الصيام لمن لم يلحقه مشقة أو عسر في المرض والسفر، ومن يكون الصوم عليه مع الناس أهون وأسهل من كلفة قضائه وقت إفطار الناس بعد رمضان لانتفاء علة الرخصة في حق هذا وذاك، أما من يحصل عليه مشقة فالفطر أفضل في حقه، وكذلك المجاهد الذي يتقوى بفطره على الجهاد المقبل عليه أو الذي هو متلبس فيه.

يريد الله بكم اليسر

وقد حصل في هذا الزمان حاجة جديدة للإفطار، وهي في حق الذين يتدربون على قيادة الطائرات الحربية ويمنعهم واجب التعليم من الإفطار، فهؤلاء قد حصل لهم فتوى بالإفطار من بعض الجهات الدينية، والأولى أن يقصر الحكم على الحاجة الصحيحة الحاضرة الملحة، فإذا كان التدريب في وقت حرب تحتاج فيه القيادة الإسلامية إلى المزيد من الطيارين المسلمين أو على تخوف من مباغتة العدو تخوفاً له مبرراته، جاز للمتعلمين الإفطار بالتزام القضاء وقت العطلة أو وقت الأمن والراحة.

إما إذا كان التعليم للاستعداد والاحتياط فيجب على قيادة الطيران أو القيادة الحربية العامة إعفاء الطلاب من التعليم في شهر رمضان تعظيماً له واحتراماً لفريضة الصوم، وصيانة له من الجناية عليه بإفطار ليس ضرورياً، ولا يجوز للعلماء التساهل في حقوق الله بجانب ما يسمى حق الوطن أو الشعب أو حق العلَم (بفتح اللام) فإن الله جعل في الصيام تربية روحية عظيمة تفوق ما يحصل عليه الطالب من التربية المادية أضعاف الأضعاف.

وعلى ولاة المسلمين أن يهتموا بأمورهم الدينية غاية الاهتمام ويؤثرونها على الأمور الأخرى، وأن يحترموا أوقات العبادة من صلاة وصيام فيخضعوا لها برامج التعليم مهما كانت، ولا يخضعونها هي لبرامج التعليم، اقتداء بمن ضل سعيهم في الحياة الدنيا، بل يجعلون الدين هو الركيزة الأساسية، والذي له الأولوية في كل شيء، ليحققوا الاستجابة لله، فيتأهلوا لاستمطار نصر الله ومدده.

هذا وينبغي أن يعلم الفرق بين الإرادتين: الإرادة الكونية والإرادة الشرعية، فالإرادة الكونية هي إرادة القضاء والتكوين، وهذه إرادة لابد من حصولها في كل مخلوق مربوب لله. أما الإرادة الشرعية فهي إرادة الأمر والتشريع، ومن هذا الباب قوله تعالى: (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) يعني أن حكمته التشريعية اقتضت تسهيل التكاليف على العباد تيسيراً لهم لطريق الوصول إليه، فبنى تكاليفه على الحكمة والرحمة ويسرها عليهم وجعل ثواب الحسنة عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة حسب صدق فاعلها في نشاطه وطيب نفسه وإخلاصه، واستصغاره لما

يفعل، واحتقاره، وحسب موقع الفعل، كبرد الماء في الوضوء، وطول الطريق إلى المسجد، وقوة الخشوع في الصلاة، وطول انتظارها، وتجشم الوحل والبرد في سبيلها، وحسب سماحة نفس المتصدق وبعده عن الرياء والسمعة، والمنة في الصدقة، وحسب موقعها من الحاجة في المدفوعة إليه، وحسب شدة البرد أو الحر في الصيام، وطيب نفسه واحتسابه، وحسب طيب نفس الحاج وطهارة ماله من الحرام، وعدم الرفث والأذى، ومبلغ نفعه للمسلمين في حجه، وغير ذلك.

وأما قوله سبحانه: (ولا يريد بكم العسر) فهذا أيضاً من إرادته الشرعية ورحمته بعباده أن بنى شريعته على اليسر الموصل إليه ولطف بعباده عن التشريع العسير الذي يفظعهم من الوصول إليه أو ينقص من درجاتهم لديه، وهذا كقوله تعالى: (وما جعل عليكم في الدين من حرج)، وقوله: (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها). وقوله ﷺ: (يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا). إلخ.

وقوله تعالى: (ولتكملوا العدة) بتخفيف الميم على قراءة الأكثرين، أو تشديدها على قراءة عاصم من طريق أبي بكر بن عياش، فالمقصود بها التكميل على القراءتين واللام للتعليل، فهي معطوفة على التعليل السابق المستفاد من قوله تعالى: (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) يعني أن ما حصل من التخفيف عليكم في أمر الصيام هو لأجل أن تكملوا العدة، فمن لم يكملها أداء في وقتها قام بتكميلها قضاء من أيام أخرى، فيكون إكمالكم لها في حالة يسر واطمئنان وانشراح صدر، فتحصلوا على بركة الصيام وخيراته المعنوية من تهذيب النفس وتربيتها بما يزكيها وينفعها، ومن تحصيل الأجور العظيمة عند الله بهذا الإكمال الميسر، ولا يفوتكم شيء من بركاته ولا من أجوره.

وهذه نعمة عظيمة من نعم الله عليكم بتيسير التكليف وتوفيقكم إلى فعله والخروج منه ببراءة ذمة وإحسان في العمل، ولهذا قال سبحانه وتعالى: (لعلكم تشكرون)، لأن أداء الصوم على ما يقتضيه الشرع، كما أسلفنا تفصيله، يربي على تحقيق الشكر والقيام به.

ومن مبادئ الشكر تكبير الله، ولذا جاءت به الآية قبله في قوله: (ولتكبروا الله على ما هداكم) أي تكبروه بجميع معاني التكبير على ما هداكم للإيمان به، ويسر

عليكم شرائع دينه، ووفقكم لطاعته، فإن تيسير التشريع من الله معونة على طاعته، فهي نعمة عظيمة يستحق عليها الشكر الذي من موجباته التكبير الصادق، وهو الذي يصدر من القلب قبل اللسان، وتصدقه الجوارح، وليس التكبير مجرد النطق باللسان من ذكر وحمد وتعظيم، وإنما التكبير المطلوب النافع هو تكبير الله بالحب والتعظيم في القلب، بأن ينحشي من حب الله وتعظيمه، فلا يكون فيه محل ولا فراغ لحب فلان وعلان، ولا يشاركه فيه حب شهوة أو معشوق، بل تقوده محبة الله إلى محبة كل ما يحبه الله من شخص أو عمل، وبغض ما يبغضه الله من شخص أو عمل، والتلذذ بطاعته والتشرف بتنفيذ أوامره، والمسارعة فيما يرضيه. فالتكبير القلبي يتكون من التكبير العملي، ثم التكبير القولي بالحمد والتسبيح، فيكون لسان المؤمن رطباً من ذكر الله، وقلبه منطبعاً بتكبير الله تكبير محبة وتعظيم.

بحيث لا يرى أحداً أكبر من الله سبحانه ولا أعظم. وبهذا لا يخشى إلا الله، ولا يرهب من سواه أبداً مهما كان، فيكون قلبه مصدقاً لما ينطق به لسانه، وبذلك يكون صلباً في عقيدته، قوياً في إرادته، وإلا فما الفائدة من التكبير؟ نعم ما الفائدة من التكبير المقصور على اللسان تقليداً موروثاً؟ ينبغي للمسلمين أن يكبروا تكبيراً قلبياً صحيحاً تتفجر به طاقاتهم في العمل المرضي لله من حمل رسالته وتوزيع هدايته، وبذل النفس والنفيس للدفع برسالة الله إلى الأمام بصدق وإخلاص، وطهارة قلوب وجوارح:

وهنالك يصعقون عدوهم بالتكبير، ويزلزلونه من حصونه، فيقيمون حكم الله في جميع أصقاع الأرض، بدلاً من حالتهم التعيسة الآن، عليهم أن يرعوا أمانة الله حق رعايتها، وأن لا يبدلوا نعمة الرسالة كفراً بالانصراف عنها إلى غيرها من المبادئ الأرضية والمذاهب المادية.

فقوله تعالى: (ولعلكم تشكرون) تعليل آخر لحكمة الصيام والتخفيف فيه، لأن أداءه على الوجه المطلوب خير حافز على الشكر العملي الذي هو القيام بواجب الرسالة بعد التمسك بحقيقة الهداية، وقد سبق أن لفظة (لعل) للترجي الذي لا يكون إلا فيما جرت أسبابه، وحيث أن أداء الصيام على حقيقته المطلوبة يصقل القلوب، ويهذب النفوس، ويقوي فيها الإرادة وصدق العزيمة، جاء طلب الشكر من الصائمين بهذه الصيغة.

ولهذا جاء الأسلوب القرآني بهذا التغيير للإشارة إلى أن هذا المطلوب بمنزلة المرجو لقوة الأسباب المتآخذة في حصوله. ففي آخر هذه الآية الكريمة نوع من اللف لطيف المسلك قلَّ من يهتدي إليه، ولهذا قال بعضهم عن الواو إنها زائدة.

والحاصل أن الشكر المطلوب منا هو الشكر العملي أو الشكر الكامل، وهو الواجب الصحيح، كما قدمنا من أنه يكون بالقلب والجوارح جميعها واللسان، ويكاد الشكر أن يكون هو الدين كله، كما قال تعالى: (فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون)[1]. فشكر الله له أعظم المساس بأصل الأصول وأكبرها إلى أصغر الفروع وأدقها، إذ أن أصل الشكر وقوامه تجريد التوحيد لله بإخلاص المحبة، والتعظيم الموجب لطاعته، وتعظيم شعائره، وإقامة حدوده، وتنفيذ شريعته، وحصر الحاكمية له باعتباره الإله الملك المطاع، ووصفه بصفات الكمال، وتنزيهه عن مشابهة خلقه في أي صفة وميلاد وعدم التقدم عليه وعلى رسوله بأي رأي أو تشريع، وحصر الحب والموالاة له وفي سبيله، والبغض والمعاداة من أجله، تحقيقاً لمحبته ومرضاته، وجعل الأولوية في الحب لله ورسوله على المحبوبات الثمانية من الآباء والأبناء والأزواج والإخوان والعشيرة والأموال والتجارة والأوطان، لأن من كان حبه لشيء من ذلك فوق حب الله ورسوله انصرف قلبه إليها وكان عمله لها ومجهوده في سبيلها، فيكون مشركاً في العمل لغير الله، غير شاكر له، لأنه قد جعل ما فضله في المحبة من هذه الأصناف ولياً من دون الله يحب من أجله ما شاء، ولو كان عدواً لله كالنصارى واليهود وأنواع الملاحدة ويواليهم على حساب دين الله، كما يعادي من شاء ولو من المسلمين أولياء الله، ويكون بذله ومجهوده الحربي من أجل أحد هذه الأصناف المنصوص عليها في الآية ٢٤ من سورة التوبة، فما أبعده عن الشكر، وأما في الفروع فيكون متبعاً لهواه في أي شأن من شؤون حياته، فإذا لم يكتسب الشكر من أداء الصوم كان مفلساً والعياذ بالله.

---

(١) سورة البقرة:١٥٢.

الصيام الصحيح فرصة لاستجابة الدعاء

قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ [١٨٦]﴾ من سورة البقرة هذا إخبار من الله سبحانه عن قربه من عباده القرب اللائق بجلاله الذي وردت النصوص بإثباته، وهو نوعان:

(أحدهما) القرب من جميع خلقه بعلمه المحيط بهم ورقابته على جميع أحوالهم، فهو الرقيب على الخواطر واللواحظ، وهو العليم المحيط علمه بكل شيء (عالم الغيب والشهادة – يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور)، فهو سبحانه بعلمه أقرب إلى الإنسان من حبل وريده، كما قال تعالى: (ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد). وكما قال: (ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض، ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم، ولا خمسة إلا هو سادسهم، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا)[1] يعني بعلمه المحيط بكل شيء، الشامل لكل شيء، ولهذا ختم الآية بقوله: (ثم ينبؤهم بما عملوا يوم القيامة، إن الله بكل شيء عليم).

و(ثانيهما) قربه من عابديه وداعيه بالمعونة والتوفيق والإجابة، كما ورد في الحديث القدسي الصحيح: (ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه).

وفي الحديث القدسي الآخر: (ومن تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً، ومن تقرب إلي ذراعاً تقربت منه باعاً، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة).

فهذا من قرب المعونة والتسديد واللطف والتوفيق، وليس شيء منهما قرب مكان كما توهمه المشبهة أو فرت منه الجهمية وفروعها خشية اعتقاد التجسيم والتحيز ونحوه من مصطلحات المنطق اليوناني الذي لا يجوز التعويل عليه، فضلاً عن إخضاع

---

(١) سورة المجادلة، آية: ٧.

النصوص له والعياذ بالله.

ولما كان في الصيام إعداد لذكر الله وشكره، والتقرب إليه بمزيد الطاعات، والضراعة إليه بالدعاء لقوة الرجاء، ناسب أن يأتي الله العليم الحكيم بهذه الآية في غضون آيات الصيام كجواب عن سؤال يتوقعه الداعي الملح بالدعاء طلباً لسرعة الإجابة، فكانت واقعة في محلها، سواء صح ما ورد في أسباب نزولها أم لا، وذلك لقوة ارتباطها بحالة الصوم والصائمين.

ولا يخفى ما فيها من التشريف والرفعة لسيدنا ونبينا محمد ﷺ لتوجيه الخطاب إليه.

وروى ابن جرير وابن أبي حاتم وغيرهما في سبب نزول هذه الآية أن أعرابياً جاء إلى النبي ﷺ فقال: أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه. فسكت عنه. فأنزل الله عليه الآية: (وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع...).

وأخرج عبدالرزاق عن الحسن قال: سأل أصحاب رسول الله ﷺ: أين ربنا؟ فنزلت. ورووا غير ذلك مما أعرضنا عنه لضعف سنده جداً. وصدور هذا السؤال من الصحابة بعيد. أما صدوره من الأعراب فليس ببعيد، لأنهم اعتادوا جعل وسائل ووسائط بينهم وبين الله، إما أشخاص وإما تماثيل أشخاص كالأصنام يزعمون أنها تقربهم إلى الله زلفى، ولم يهتدوا بأنفسهم إلى التجرد لمعرفة الإله العظيم الذي لا يحتاج عباده في الضراعة إليه وطلب شيء من رحمته إلى وسائط، بل هو السميع لأصواتهم على اختلاف لغاتهم ولهجاتهم، وهو العليم بسرائر أحوالهم وخفاياها، فهم لا يعلمون بهذا حتى هداهم الله بوحيه المبارك إليه.

ويروى أن النبي ﷺ سمع المسلمين في غزوة خيبر يدعون الله بأصوات عالية، فقال لهم: (أربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً).

وعلى كل حال فإن هذه الآية الكريمة تفيد بأن طواعية الله والاستجابة لأوامره بصدق وإخلاص سبب عظيم من أسباب قبول الدعاء، لأن ذلك يستجلب القرب المعنوي من الله، كما أنها أيضاً تفيد حكماً شرعياً آخر وهو عدم رفع الصوت بالدعاء، وفي أي عبادة، إلا بالمقدار الذي حدده الشارع في الصلاة الجهرية بدون مبالغة إلا لحاجة.

وقد روى الإمام أحمد والبخاري ومسلم وأصحاب السنن من عدة طرق إلى أبي عثمان النهدي عن أبي موسى قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر فجعل الناس يجهرون بالتكبير، فقال النبي ﷺ: (أيها الناس أربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إنكم تدعون سميعاً قريباً وهو معكم). وفي رواية أخرى أنهم كانوا يرفعون أصواتهم بالتهليل والتكبير إذا علوا عقبة أو ثنية.

ولا ريب أن الدعاء من أنفع الأدوية وأسرعها فرحاً ونجاحاً، وهو عدو البلاء، يدافعه ويعالجه حتى يمنع نزوله أحياناً، وأحياناً يخفف وطأته أو يرفعه بالكلية إذا نزل، وهو من أقوى الأسلحة المعنوية للمؤمنين، فقد روى الحاكم فيما صححه عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (الدعاء سلاح المؤمن وعماد الدين ونور السموات والأرض).

وقد ثبت بالاستقراء أن له مع البلايا والمصائب ثلاث حالات:

(**أحدها**) أن يكون أقوى منها فيدفعها وذلك كدعاء المضطر الخائف الضرير الوجل المشفق المخلص المحقق لطاعة الله، المنزه من معاصي الله، فإن أدعيته سهام نافذة صائبة تقضي على كل بلاء ومصيبة.

(**ثانيها**) أن يكون الدعاء أضعف من البلاء لضعف حال صاحبه في شيء مما ذكرناه، فلا تكون فيه المقاومة الكافية لدفع البلاء والمصيبة، ولكنه يخفف وطأتها.

(**ثالثها**) أن يكون موازياً للبلاء، فيتقاومان ويمنع كل واحد منهما صاحبه، وهذه الحالة الوسطى. ومن المرغب فيه والمجرب نفعه الإلحاح في الدعاء، فقد ذكر الأوزاعي عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: (إن الله يحب الملحين في الدعاء).

وروى ابن ماجة في سننه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (من لم يسأل الله يغضب عليه). وهذا من عظيم رحمته وجوده بخلاف البشر المخلوق، كما أحسن الشاعر قوله:

الله يغضب إن تركت سؤاله وبني آدم حين يسأل يغضب

وروى الحاكم في صحيحه من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله

ﷺ: (لا يغني حذر من قدر، والدعاء ينفع بما نزل ومما لم ينزل، وإن البلاء لينزل فيتلقاه الدعاء فيعتلجان إلى يوم القيامة).

وأخرج أيضاً من حديث ثوبان عن النبي ﷺ: (لا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر، وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه). وأخرجه أيضاً من حديث أنس عن النبي ﷺ: (لا تجزعوا في الدعاء فإنه لا يهلك مع الدعاء أحد).

وينبغي أن يعلم أن الأدعية والتعاويذ بمنزلة السلاح، ليس تأثيره بذاته فقط وإنما تأثيره بقوة مستعمله ومعرفته بحقيقة الاستعمال، ودون ذلك لا ينفع أو يكون نفعه ضعيفاً، فمتى كان السلاح سلاحاً تاماً صالحاً لا عيب فيه وكان ساعد الحامل له قوياً وجنانه أقوى من ساعده برباطة جأشه وثبات عزيمته ولم يحصل مانع يحول دون نفوذه، كان السلاح مجدياً نافعاً لتوفر أسباب مفعوله وفقدان المانع منه، ومتى تخلف واحد من ذلك أو وجد المانع من نفوذ السلاح فقد بطل مفعوله: وهكذا الدعاء إن كان صالحاً في نفسه والداعي قد جمع بين قلبه ولسانه في الضراعة والخشوع وقوة التعلق بالله وصدق اللجوء إليه وحسن العلاقة مع الله بالإخلاص في المقاصد وصلاح الأعمال والتوبة النصوح أو تقديم حسنة أو صدقة ولم يحصل مانع للقبول من الإصرار على ذنب أو أكل حرام أو تلبس بمظلمة فإنه يكون نافعاً ناجحاً. وإن خلا من الضراعة الصحيحة وصدق اللجوء وحسن العلاقة وصدق التوبة أو حصلت موانع الإجابة تخلفت منفعة الدعاء.

ولهذا كان بعض الداعين لله عند بعض القبور يستجاب لهم لما خالطهم من الذل والضراعة وصدق اللجوء إلى الله ونحو ذلك، فيظن المستجاب له أنه بتأثير القبر، وليس الأمر على ظنه، بل لو حصلت له هذه الحالة في المسجد لانتفع بالدعاء انتفاعاً أعظم وحصلت له فضيلة أكبر، وكذلك يظن بعض الناس إذا رأى الاستجابة لبعض الداعين بأنواع الدعوات أن السر في الإجابة من ألفاظ تلك الدعوات، فيدعو بها مجردة عن تلك الأمور التي قارنتها من الداعي غفلة منه عن السر الحقيقي الذي ذكرناه من ضرورة مقارنة تلك الأمور، فإذا لم يحصل له الإجابة التي حصلت لذاك أصابه الجزع والهلع والأوهام الباطلة لقلة فهمه بأسباب الإجابة، وجهله بغفلة قلبه، وعدم إقباله على الله، وجمع همته عليه، وعدم الخضوع والتملق أو عدم طهارة قلبه وجوارحه لله

تعالى، ونحو ذلك من موجبات الإجابة وعدم موانعها.

ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون﴾ لأن الاستجابة لله يجب أن تتحقق، والإيمان الصحيح بالله يجب أن يحصل.

وقد قال تعالى: (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) فحصول الإيمان الصحيح والاستجابة لأوامر الله من ضروريات إجابة الدعاء في أغلب الأحوال، وإن كان الله قد يلطف بالكافر الجاهل إذا دعاه مضطراً صادق الضراعة.

وقد حصل هذا فعلًا واعترفت به أوساط عليه، لأن كثيراً من الكفار ساروا في كفرهم على جهل وتقليد وقوة فتنة فكرية وتقصير من دعاة الإسلام أو من المسئولين عن الإسلام والتأليف عليه، ولم يكن كفرهم عن عناد وجحود واستكبار، فإن الله يحب دعوة المضطر منهم حسب ما اقتضته حكمته ورحمته.

وفي مسند الإمام أحمد من حديث أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: علمني رسول الله ﷺ إذا نزل بي كرب أن أقول: (لا إله إلا الله الحليم الكريم، سبحان الله وتبارك الله رب العرش العظيم والحمدلله رب العالمين).

وفي مسنده أيضاً من حديث ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: (ما أصاب أحداً قط هم ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض في حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك اللهم بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي، إلا أذهب الله همه وحزنه وأبدله مكانه فرحاً، فقيل: يا رسول الله ألا نتعلمها قال: بل ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها).

وعن ابن عباس مرفوعاً: (من كثرت همومه وغمومه فليكثر من لا حول ولا قوة إلا بالله). وثبت في الصحيحين أنها كنز من كنوز الجنة. وفي الترمذي أنها باب من أبواب الجنة.

وهذه الأدعية العظيمة فيها عدة فوائد:

(أحدها) إثبات توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية لله بما اشتملت عليه من اعتراف الداعي بالعبودية لله هو وأسلافه.

(ثانيها) التوحيد العلمي الاعتقادي بما اشتملت من حصر الحكم لله وأن نواصي الخلق بيده سبحانه.

(ثالثها) تنزيه الله تعالى عن الظلم وأنه لا يأخذ أحداً بلا زلة ولا تجرى عقوبة بلا سبب. ويدخل في هذا.

(رابعها) وهو اعتراف السائل بأنه الظالم حيث قال (عدل في قضاؤك).

(خامسها) الاعتراف لله بكمال القدرة والإرادة والنفوذ بقول السائل: (ماض في حكمك).

(سادسها) التوسل إلى الله بأحب الأشياء إليه من أسمائه وصفاته المعلومة والخفية.

(سابعها) حصر الاستعانة به سبحانه واللجوء إليه وحده.

(ثامنها) حصر الرجاء والرغبة إليه دون ما سواه.

(تاسعها) تحقيق التوكل إليه وتفويض الأمر إليه.

(عاشرها) قصر علاجه على القرآن الذي هو أفضل ما تقرب المتقربون به إلى الله طالباً منه ألا يجعل قلبه يرتع إلا في رياض القرآن، ويجعل القرآن لقلبه كالربيع للحيوان، مستغنياً بشفاء القرآن عما سواه، طالباً من الله أن يجعله نور قلبه الذي يستضيء به في ظلمات الشبهات والشهوات لينجو من مهاويها، وأن يتسلى به عن كل فائت، ويتعزى به عن كل مصيبة، لينجلي حزنه وغمه، وأن يأنس بربيعه حتى لا تساوره الهموم على المستقبل من شأنه، فلا عجب إذا استجاب الله له وأذهب عنه الغم والهم والحزن وأبدله مكان ذلك فرحاً.

(**حادي عشرها**) البراءة من الحول والقوة، وتفويضهما إلى الله، لأنهما بيده يمد بهما من يشاء، وصاحب هذا المقام يستحق العون والمدد من الله.

وفي الحقيقة إن الإنسان ذو الحياة القلبية إذا قابل بين ضيق الكرب وسعة هذه الأوصاف التي تضمنها دعاء الكرب وجدها في غاية المناسبة لتفريج هذا الضيق وخروج القلب منه إلى سعة البهجة والسرور. قال ابن القيم رحمه الله: وهذه الأمور إنما يصدق بها من أشرقت فيه أنوارها وباشر قلبه حقائقها. انتهى.

وفي جامع الترمذي وصحيح الحاكم من حديث سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ

قال: (دعوة ذي النون إذ دعا وهو في بطن الحوت (لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) أنه لم يدع بها مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له). قال الترمذي: حديث صحيح.

وفي صحيح الحاكم أيضاً عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: (هل أدلكم على اسم الله الأعظم: دعاء يونس: فقال رجل: يا رسول الله هل كان ليونس خاصة؟ فقال: ألا تسمع قوله تعالى: (فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين). فأيما مسلم دعا بها في مرضه أربعين مرة فمات في مرضه ذلك أعطي أجر شهيد، وإن برئ برئ مغفوراً له).

وفي جامع الترمذي من حديث أنس بن مالك قال: كان النبي ﷺ إذا كربه أمر قال: (يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث). قال ابن القيم: وفي تأثير قوله: يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث في دفع هذا الداء – داء الكرب – مناسبة بديعة، فإن صفة الحياة متضمنة لجميع صفات الكمال مستلزمة لها، وصفة القيومية متضمنة لجميع صفات الأفعال. ولهذا كان اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى، هو اسم الحي القيوم، والحياة التامة تضاد جميع الأسقام والآلام. ولهذا لما كملت حياة أهل الجنة لم يلحقهم هم ولا غم ولا حزن ولا شيء من الآفات. ونقصان الحياة يضر بالأفعال وينافي القيومية. فكمال القيومية لكمال الحياة. فالحي المطلق التام لا يفوته صفة الكمال البتة، والقيوم لا يتعذر عليه فعل البتة. فالتوسل بصفة الحياة والقيومية له تأثير في إزالة ما يضاد الحياة ويضر بالأفعال. إلى أن قال: والمقصود أن لاسم الحي القيوم تأثيراً خاصاً في إجابة الدعوات وكشف الكربات.

وفي السنن وصحيح ابن أبي حاتم مرفوعاً: اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: (وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم). وفاتحة آل عمران: (الم الله لا إله إلا هو الحي القيوم) والتوسل إليه سبحانه بتوحيده مما له تأثير قوي في دفع داء الكرب والهم والحزن، وكذلك قوله: (الله ربي لا أشرك به أحداً) كما في حديث أسماء بنت عميس عند أبي داود.

وأما حديث ابن مسعود المتقدم ففيه من المعارف الإلهية وأسرار العبودية مالا يتسع له كتاب، فإنه يتضمن الاعتراف من الداعي بعبوديته وعبودية آبائه وأمهاته وأن

ناصيته بيده يصرفها كيف يشاء فلا يملك العبد دونه نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، لأن من ناصيته بيد غيره فليس إليه شيء من أمره، بل هو عان في قبضته، ذليل تحت سلطانه وقهره، وقوله: (ماض في حكمك، عدل في قضاؤك) متضمن لأصلين عظيمين عليهما مدار التوحيد.

(**أحدهما**) إثبات القدر وأن أحكام الرب تعالى نافذة في عبده ماضية فيه، لا انفكاك له عنها ولا حيلة له في دفعها.

(**ثانيهما**) أنه سبحانه في هذه الأحكام غير ظالم لعبده، بل لا يخرج، عن موجب العدل والإحسان، فإن الظلم سببه حاجة الظالم أو جهله أو سفهه، فيستقبح صدوره ممن هو بكل شيء عليم، ومن هو غني عن كل شيء، وكل شيء فقير إليه، وهو أحكم الحاكمين، انتهى باختصار.

ووجه تأثير الدعاء الذي هو الدواء الروحي للأمراض الحسية هو أن الله في خلقته لابن آدم جعل لكل عضو من أعضائه كمالاً إذا فقده أحس بالألم، وخص ملكها وهو القلب بكمال روحي إذا فقده حضرته أسقامه وآلامه من الهموم والغموم والأحزان. فالعين إذا فقدت ما خلقت له من قوة الإبصار فقدت كمالها، وكذلك الأذن واللسان.

فالقلب خلقه الله لمعرفته ومحبته وصحة توحيده والسرور به، والابتهاج بحبه والرضى عنه، والتوكل عليه، والحب فيه، والموالاة فيه، والبغض فيه، والمعاداة من أجله، ودوام ذكره سبحانه وتعالى، وأن يكون أحب إليه مما سواه، وأرجى عنده من كل ما سواه، وأجل في قلبه من كل ما سواه، فلا نعيم له ولا لذة ولا سرور بل ولا حياة إلا بذلك، وهذا له بمنزلة الغذاء والصحة والحياة الروحية، فإذا فقد ذلك انتابته الهموم والغموم، وخيمت عليه الأحزان، حتى يكون كالمرتهن فيها، وأعظم أمراض القلب هي الشرك والذنوب والغفلة، والاستهانة بمحبوبات الله ومراضيه، وترك التفويض إليه، وقلة الاعتماد عليه، والسخط على مقدوره، والشك في وعده ووعيده، والركون إلى سواه.

فهذه أمراضه الروحية ولا علاج لها سوى ما أرشد إليه المصطفى ﷺ في الأحاديث السابقة المحتوية على محض التوحيد الذي فصلناه مما يفتح للقلب أبواب

الخير والسرور واللذة والفرح، وفي مضمونها التوبة الصادقة التي تستفرغ ما حل بالقلب من أنواع الغزو الفكري الذي يركزه فيه شياطين الجن وشياطين الإنس من صنوف الشبهات والشهوات التي تجلب القلق والاضطراب للقلب، فهي أضر عليه من الأخلاط والمواد الفاسدة في البدن ولا يستفرغها منه إلا صدق الضراعة إلى الله بهذه الدعوات النبوية، فهي تغلق عنه أبواب الشر وتفتح له باب السعادة والخير بخالص التوحيد الذي يربطه بالله ويقصر همته على الذكر والتوبة والاستغفار.

ففي سنن أبي داود عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: (من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً ومن كل ضيق مخرجاً ورزقه من حيث لا يحتسب). وقال ثابت بن قرة: (راحة الجسم في قلة الطعام، وراحة الروح في قلة الآثام، وراحة اللسان في قلة الكلام، والذنوب للقلب بمنزلة السموم للبدن إن لم تهلكه أضعفته – فالهوى من أكبر أمراض القلب التي تجلب على البدن أنواعاً من الأمراض أيضاً، ومخالفة الهوى ومحاربته من أعظم الأدوية للروح والقلب.

وقد جبلت النفس على الظلم والجهل، فهي لجهلها وظلمها الذي هو تقصيرها في حق ربها تظن شفاءها في اتباع أهوائها والأمر بالعكس، ولا نجاة لها أبداً إلا بمحاربة الهوى، وذلك لا يحصل إلا بالتوحيد القوي الذي يعمر القلب بتقوى الله ويحصنه بصدق محبته وإجلاله وتعظيمه، فإن محبة الله خير حارس للقلب، وحافظ له من غزو محبة غيره. وصدق المؤمن في حب الله يجعله يعامله معاملة المحب الصادق لحبيبه وبذلك يحصل على النجاة والفلاح.

وهنا سؤال عن الدعاء يشغب به بعض الجهال، وهو أن الذي يطلبه الداعي إن كان مقدراً فلا بد من وقوعه، سواء دعا به العبد أو لم يدع، وإن لم يكن مقدراً لم يقع مهما دعا به الداعي.

وهذا السؤال جهل وغلط، إذ لو صح لتعطلت جميع الأسباب وقياسه على السائل يكشف عنه أنه أجهل من أي جاهل، إذ طرد سؤاله أنه لا يسعى للأكل والشرب ما دام الشبع والري قد قدره الله له، ولا يتزوج ما دام الولد مقدراً له. وهكذا لا يحتاج إلى عمل نتيجته مقدرة. فأي ضلال أفظع من هذا؟

وقد أجاب البعض عن هذا السؤال بأجوبة غير كافية. والصواب أن هذا المقدور

الذي يحتج به السائل قدره الله بأسباب من جملتها الدعاء، فلم يقدر الله شيئاً مجرداً عن سببه. فمتى أتى العبد بالسبب وقع المقدور، وإذا لم يأت به انتفى وقوعه أو تخلف حتى يأتي بالسبب. وهذا كما قدر الشبع والري بالأكل والشرب، وكما قدر الولد بالنكاح والزرع بالبذر والسقي، وقدر الشفاء بأخذ الأدوية الروحية أو المادية، وكما قدر النصر بمحاربة الأعداء مع الصبر والثبات.

وهكذا، فالدعاء من أقوى الأسباب التي ربط الله حصولها بالدعاء، بل يجعله أحياناً يصارع القدر كما يصارع المحارب عدوه.

وإذا كان وقوع المدعو به مقدراً بالدعاء لم يصح أن يقال لا فائدة في الدعاء، كما لا يصح أن يقال لا فائدة في الأكل والشرب وسائر الحركات والأعمال، ولهذا كان الصحابة الذين هم أعلم الأمة هم أقوم الناس بالدعاء وأحفظهم لشروطه وآدابه، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يستنصر على عدوه بالدعاء، ويوصي جنده بذلك قائلاً لهم: (لستم تنصرون بكثرة وإنما تنصرون من السماء. وكان يقول: إني لا أحمل هم الإجابة ولكن أحمل هم الدعاء هذا وإن للدعاء شروطاً وآداباً وموانع سأذكر ما يوفقني الله إليه منها:

(**فالأول**) أن يكون الداعي لله على طهارة ظاهرة وباطنة.

(**الثاني**) أن يكون مستقبلاً القبلة.

(**الثالث**) أن يتحرى أوقات الإجابة وهي: الثلث الأخير من الليل، وعند الأذان، وبين الأذان والإقامة، وعند بدء نزول الغيث، وفي وقت الإفطار للصائم، وفي السجود، وفي نهاية التشهد الأخير، أو في أدبار الصلوات، وعند صعود الإمام على المنبر يوم الجمعة، وآخر ساعة منها بعد العصر، وفي سفر الطاعة، وفي الجهاد الصحيح، كما أوضحناه سابقاً.

(**الرابع**) حضور القلب وجمعيته بكله على المطلوب لحديث: (لا يقبل الله دعاءً من غافلٍ ساه).

(**الخامس**) خشوع القلب وذله وانكساره بين يدي الله.

(**السادس**) الضراعة إلى الله برقة وتملق.

(**السابع**) الصلاة على النبي ﷺ في أول الدعاء وأوسطه وآخره.

(**الثامن**) الثناء على الله بما هو أهله والاعتراف بالظلم والتقصير.

(**التاسع**) مداومة الدعاء في السراء قبل نزول الضراء، وهذا ابتعاد عن الغفلة والاستغناء عن الله.

(**العاشر**) تقدم عشر تسبيحات فأكثر لورود الأثر بذلك.

(**الحادي عشر**) الدعاء بالأدعية الشرعية المأثورة لانضباطها وسلامتها من الاعتداء.

(**الثاني عشر**) أن لا يدعو الله بإثم ولا بقطيعة رحم، ولا يسلك كل دعاء أي مسلك من مسالك الاعتداء فإن الله يقول: (ادعوا ربكم تضرعاً وخفية إنه لا يحب المعتدين). وفي الحديث: (إن أقواماً يعتدون في الدعاء).

(**الثالث عشر**) أن لا يدعو بالمستحيلات أو خوارق العادات التي قد يكون ليس من أهلها، وهذا أيضاً من الاعتداء.

(**الرابع عشر**) أن يدعو الله بما يليق، فلا يدعوه طالباً رتبة الأنبياء أو الملائكة، أو الاطلاع على شيء من علم الغيب ونحو ذلك مما يدخل في قسم الاعتداء أو يسبب نكصة.

(**الخامس عشر**) أن لا يدعو بدعاء الأنبياء غير المنصوص عليه، كدعوة نوح على قومه أو دعوة إبراهيم عليه السلام لبعض ذريته، لأن في هذا مخالفة لسنة الله وإفراط لا ينبغي صدوره من أمه محمد ﷺ، فكثيراً ما نسمع بعض الجهلة يقول (رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي) اقتداء بإبراهيم بدون ملاحظة للفارق بينه وبين إبراهيم، فإبراهيم يعلم من الله أن ذريته ستملأ الأرض براً وبحراً، وفيهم المؤمن وأكثرهم فاسق، كما قال تعالى: (ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب، فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون). فلهذا قال إبراهيم (ومن ذريتي) أدباً مع الله ودعاء له بما يليق. أما هذا السائل الجاهل فإنه رب أسره قليلة لا يرضى أن يكون بعض أولاده كافراً أو ملحداً لا يصلي، فكيف يدعو ربه بقوله: (اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي)[1] فهذه

(١) سورة إبراهيم، آية ٤٠.

الآية مما نتعبد الله بتلاوتها لا بالدعاء بها، والداعي بها ظالم لنفسه ومسيء إلى ذريته، إذ يسأل الله صلاح بعضهم دون بعض، فينبغي التفطن لذلك وتنبيه الغافل عن هذا الدعاء الذي لا يرضى مضمونه لذريته.

(**السادس عشر**) أن يكون ملازماً للتوبة والاستغفار ليكون ادعى للقبول.

(**السابع عشر**) الخروج من المظالم، فقد روى عبدالله بن الإمام أحمد في كتاب الزهد أن بني إسرائيل أصابهم بلاء فخرجوا مخرجاً فأوحى الله إلى نبيهم أن أخبرهم أنكم تخرجون إلى الصعيد بأبدان نجسة وترفعون إلي أكفاً قد سفكتم بها الدماء وأكلتم المال الحرام، الآن اشتد غضبي عليكم ولن تزدادوا مني إلا بعداً).

(**الثامن عشر**) تحري أكل الحلال لما ورد في صحيح مسلم عنه ﷺ أن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، إلى أن ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب. يا رب، ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك؟

(**التاسع عشر**) أن يكون الدعاء بضراعة، وحرقة قلب واجتهاد لا بأساليب سجعية إلا إذا جاءت من غير تكلف كقوله (اللهم اهدني فيمن هديت وعافني فيمن عافيت)، ونحو ذلك.

(**العشرون**) أن يكون برهبة ورغبة وقوة رجاء وخشوع لقوله تعالى: (إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين). ويدخل في هذه الآية.

(**الحادي والعشرون**) وهو التقدم بالحسنات وبذل الصدقات ليكون الداعي من المسارع في الخيرات.

(**الثاني والعشرون**) تحرى الأماكن الفاضلة الشريفة كالمساجد عامة والمساجد الثلاثة خاصة ومشاهدة الكعبة أخص وأخص، كما يتحرى الأوقات الفاضلة، وقد ورد الأثر أن المؤمن أقرب ما يكون إلى الله في سجوده.

(**الثالث والعشرون**) أن لا يستبطئ الإجابة فإن هذا من الآفات التي تمنع ترتب أثر الدعاء عليه وهو أن يستعجل العبد. ففي المسند عن أنس قال رسول الله ﷺ: (لا يزال العبد بخير ما لم يستعجل). قالوا: يا رسول الله كيف يستعجل قال: (يقول: قد

دعوت ربي فلم يستجب لي) وذلك لأنه يستمر فيدع الدعاء كالقانط والعياذ بالله... ومن أنفع الأدوية للنوازل الحسية أو المعنوية الإلحاح في الدعاء، ففي مسند الحاكم عن أنس عن النبي ﷺ: (لا تجزعوا في الدعاء فإنه لا يهلك مع الدعاء أحد) وقد تقدم حديث: (إن الله يحب الملحين في الدعاء).

(**الرابع والعشرون**) من شروط الدعاء وآدابه هو الإيقان بالإجابة لأنها من قوة الثقة بالله وصدق الاتكال عليه ورجاء ما عنده. وقد جاء في مستدرك الحاكم من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ: (ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يقبل دعاء من قلب غافل لاه).

فغفلة القلب عن الله تبطل قوة الدعاء ومفعوله، وذكر بعضهم حسن التعبير في لفظ الدعاء من آدابه قائلاً إنه يتضمن مواجهة الحق سبحانه بالخطاب. واستدلوا بحديث لا يثبت وهو لا يقبل الله دعاء ملحوناً. والصحيح أن التعبير على حسب الاستطاعة وإن دعاء التضرع والخشوع الصادر عن رهبة من غضب الله ورغبة في رحمته مع حرقة قلب واجتهاد أحسن تأثيراً من المنطلق الفصيح الخالي عن ذلك.

(**الخامس والعشرون**) التوسل إلى الله بصالح الأعمال المرضية له.

(**السادس والعشرون**) التوسل إلى الله بأسمائه وصفاته الكريمة العظيمة خاصة ما اشتمل منها على الاسم الأعظم أو قاربه مما يحبه الله، ومنها ما ورد في السنن وصحيح ابن حبان من حديث عبدالله بن بريدة عن أبيه أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يقول: اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد).فقال: لقد سأل الله بالاسم الذي إذا سئل به أعطى وإذا دعي به أجاب).

وفي السنن أيضاً من حديث أنس أنه كان مع النبي ﷺ جالساً ورجل يصلي ثم دعا فقال: (اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام يا حي يا قيوم).

فقال النبي ﷺ: (لقد دعا الله باسمه العظيم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى) وأخرج الحديثين الإمام أحمد في مسنده أيضاً.

وفي مسند أحمد وصحيح الحاكم من حديث أبي هريرة وأنس بن مالك وربيعة بن عامر عن النبي ﷺ أنه قال: (ألظو بياذا الجلال والإكرام). والإلظاظ: الإلحاح، يعني تعلقوا بها والزموها وداوموا عليها.

وفي جامع الترمذي عن أبي هريرة أن النبي ﷺ كان إذا أهمه أمر رفع رأسه إلى السماء، وإذا اجتهد في الدعاء قال: (يا حي يا قيوم).

وفيه أيضاً من طريق أنس قال: كان النبي ﷺ إذا كربه أمر قال: (يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث).

وفي الصحيحين من حديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ: كان يقول عند الكرب: لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض رب العرش الكريم).

وتقدم دعاء الكرب في حديث ابن مسعود والكلام عليه. كما تقدم أيضاً حديث الكرب في دعاء ذي النون.

وذكر ابن أبي الدنيا في الدعاء عن الحسن قال: كان رجل من أصحاب النبي ﷺ من الأنصار يكنى أبا مغلق وكان تاجراً يتجر بمال له ولغيره يضرب به في الآفاق وكان ناسكاً ورعاً فخرج مرة فلقيه لص، مقنع بالسلاح وقال له: ضع ما معك فإني قاتلك. قال: فما تريد إلا دمي فشأنك والمال، قال: أما المال فلي ولست أريد إلا دمك، قال: أما إذا أبيت فذرني أصلي أربع ركعات، قال: صل ما بدا لك، فتوضأ ثم صلى أربع ركعات فكان من دعائه في آخر سجدة أن قال: يا ودود، يا ذا العرش المجيد، يا فعال لما تريد، أسألك بعزك الذي لا يرام، وبملكك الذي لا يضام، وبنورك الذي ملأ أركان عرشك أن تكفيني شر هذا اللص، يا مغيث أغثني، يا مغيث أغثني، يا مغيث أغثني (ثلاث مرات). فإذا هو بفارس أقبل بيده حربة قد وضعها بين أذني فرسه، فلما بصر به اللص أقبل نحوه فطعنه فقتله، ثم أقبل إليه. فقال: قم، فقال: من أنت بأبي أنت وأمي قد أغاثني الله بك اليوم، فقال: أنا ملك من أهل السماء الرابعة، دعوت فسمعت لأبواب السماء قعقعة، ثم دعوت بدعائك الثاني فسمعت لأهل السماء ضجة، ثم دعوت بدعائك الثالث فقيل دعاء مكروب، فسألت الله أن يوليني قتله. قال الحسن: فمن توضأ وصلى أربع ركعات ودعا بهذا الدعاء استجيب له مكروباً كان

أو غير مكروب).

فهذه النصوص والآثار ترغبك أيها المؤمن بحسن علاقتك بالله، وذلك بالصدق في محبته والإخلاص في معاملته بأن لا تحب ما يكرهه الله أو يبغضه من أي شخص أو عمل، فتقصر محبتك على ما يحبه الله من أي شخص أو عمل، وتبغض وتعادي وتجانب كل ما يبغضه الله من أي عمل أو أي شخص ولو كان أقرب قريب، وتكون مستجيباً لأمر الله، غيوراً على دينه، غضوباً لحرماته وتكون همتك وغاية أملك العمل لدين الله من حمل رسالته والدفع بها إلى الأمام، وبذل النفس والنفيس في سبيل ذلك، ولا تصر على ذنب أو تسوف في التوبة، فإنك لا تدري في أي لحظة تموت، ولا تأخذك الأماني أو تشرد بك الشهوات عن صراط الله الموصل إليه، بل عاكسها لتكون قريباً من الله، مستجاب الدعوات، خصوصاً إذا طاب مأكلك بالوقوف عند حدود الله في المعاملات.

إن الله وعد المؤمنين بالمثوبة وندبهم إلى دعائه ضامناً لهم الاستجابة. وقد ورد أن الله لا يرد يدي عبده خائبتين إلا لمانع من موانع الإجابة، والقرآن صريح في ترتيب الجزاء على الخير والشر، فينبغي لصاحب الشر أن لا يطمع في الخير، لأن من طمع فيما لم يسلك طريقه فهو أحمق، وينبغي معرفة أسباب الخير والشر ليكون في سلوكه على بصيرة ويستفيد ذلك من وحي الله الذي ذكر أسباب شقاء كل أمة وأسباب هلاكها، ليحذر من ارتكاب المهلكات واستحباب العماية على الهداية بشرط أن لا يغالط نفسه كأن عنده صك أمان، فإن من أعظم أسباب الردى والهلاك مغالطة النفس أمام الحقائق.

وهنا عوائق خطيرة تحول دون الاستجابة وتحقيق الإنابة وتجعل صاحبها محروماً من الوصول إلى الله، فمنها مواصلة الذنوب مع ظن أن مجرد الاستغفار يمحوها أو تكرار الأذكار بدون توبة صحيحة يتبعها أعمال صالحة، كأن يظن أن الورد الفلاني أو الذكر الفلاني يمحو الذنوب وإن كانت مثل زبد البحر، فيتكل على ذلك مع الإصرار على الذنوب، جاهلاً أن المعصية الكبيرة لا يمحوها إلا التوبة النصوح، كما ذكرناها سابقاً، وأن الإصرار على الصغائر يجعلها كبائر، وأن الإصرار على الكبائر يؤول إلى الشرك.

ومنها الاعتماد على نسبه والصالحين من آبائه وأجداده، وهذا من أخبث غرور

الشيطان وأفسده، فإن الله قطع طمع الإنسان في سعي غيره، كما برأه من وزر غيره حيث قال: (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى – ولا تزر وازرة وزر أخرى).

ومنها الاعتماد على شفاعة الصالحين والأولياء من حي أو مقبور، وقد قطع الله جميع وسائل المشركين حتى الشفاعة ربطها بإذنه، فقال: (ولا تنفع الشفاعة عنده إلا بإذنه – ما من شفيع إلا من بعد إذنه – ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون).

فهل بعد هذا النفي الصريح المكرر طمع في شفاعة لم يأذن بها الله، والله يقول: (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى)؟

ومنها ما هو أحمق من ذلك وهو الاغترار بسكنى بلد مقدس أو جوار ولي مزعوم، ومع حماقة أهل هذا المسلك فإن شياطين الإنس من الدجاجلة قد وضعوا حكايات وأحاديث مفتراة في كرامات هذا وذاك مما جعلوا جوار (فلان) لا يضر معه معصية، بل وضعوا أحاديث مكذوبة في القدس ومكة أن الساكن بهما تسقط عنه تكاليف الإسلام، وأنه بجوار الله، وأنه لا تضره المعاصي، بل زادوا في إفكهم فقالوا: إن سيئات أهل مكة خير من حسنات غيرهم، وقالوا عن الطواف إنه يكفر كبائر الذنوب من الزنى والفواحش حتى سهلوا لإبليس طرق الإغواء والعياذ بالله. على أن جميع مفترياتهم تخالف المعقول والمنقول، فإن مسالكهم بسبب التأثير السيئ لهذه الأكاذيب مسالك إلحاد وكفر.

لقد مالوا عن الحق وانحرفوا عن هداية المصطفى ﷺ، وعطلوا أعظم شرائع الإسلام من الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ثم الإقدام على كبائر الإثم والفواحش اعتماداً على قداسة المكان أو جوار الكعبة كأنهم جيران الله، والله يقول: (ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم).

وقد وردت أحاديث كثيرة بمضاعفة السيئات كما تضاعف الحسنات، ولهذا اختار ابن عباس سكن الطائف على مكة، والعقل يجزم ويحكم بأن انتهاك الحرمات في الأماكن المقدسة أشد جرماً وأشد إثماً وأكبر، وبأن من أساء جوار الله واقترف المعاصي في حرمه يستحق زيادة اللعنة والعقوبة، وأما شبهتهم بجوار الولي فمدحوضة أيضاً، لأن ولي الله لا يرضى من العاصي ولا يشجعه على معصية الله بالشفاعة، فلو قدرنا تقديراً

خاطئاً أنه يشفع بدون إذن الله فإنه يشفع لصاحب الزلة العاثرة لا لصاحب المعاصي المسترسل فيها، لأن الولي لا يرضى إلا بما يرضى الله عنه فلو رضي بالمعاصي لم يكن ولياً، ولكن الولي لا يرضى إلا بما يرضي الله، ولو كانت مكة تعصم من أمر الله أو تعيذ المجرم لما جرى فيها على عبدالله بن الزبير ورفقته ما جرى، وهم من الأخيار، بل فيهم صحابة، ولما جرى على حجاج بيت الله من أبي طاهر القرمطي الخبيث من السفك والإرهاب ما جرى، ولما حصل على أهل المدينة في وقعة الحرة ما يندى له الجبين.

فالمعاصي إذا أراد الله تعجيل عقوبتها لا يدفعها جاه ولي مزعوم ولا قداسة بقعة، ومع هذا فلا زالوا إذا خوفناهم بشؤم المعاصي تعللوا بأنهم في الحرمين ناسين أو متناسين ما أجراه الله من فظيع العقوبات في الحرمين، والعجب أنهم إذا نسوا البعيد فكيف ينسون العقوبات القريبة مما يسمونه (سفر بري) وغيره، ولكن هذا من التأثير السيئ للكذب على الله ورسوله.

وهذه (بغداد) التي يزعم الدجالون أن فيها قبر الإمام أحمد ومعروف الكرخي لا يضر أهلها شيء ما داما بين ظهرانيهم، فهل عصمناها من شر التتار ومذابحهم الفظيعة في القرن السادس تقريباً؟ أو عصماها من جحم الشيوعية ومذابحها في هذا القرن الرابع العشر؟

ينبغي للمسلم أن لا يأمن مكر الله في حالة الإجرام أبداً، فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون، وأن لا ييأس من رحمه الله حال الإحسان، فإن رحمه الله قريب من المحسنين.

ومن المعوقات عن الاستجابة لله غرور الشيطان وتلبيسه بالتعلق بغفران الله ورجائه، وأنه يغفر الذنوب جميعاً دون الإتيان بأسباب المغفرة، فإن الله يقول: (وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى)، والقرآن يفسر بعضه بعضاً. ومن الخطأ العظيم أخذ آية على ظاهرها أو عمومها وترك ما يخصها أو ينص على المقصود منها، فإن هذا من أحابيل الشيطان، وما أكثر من يقعون له فريسة بسبب تغفيله لهم عن الآيات المفسرة والمبينة للآية المجملة، بل يجعلهم يتعلقون بقوله تعالى: (إن الله يغفر الذنوب جميعاً) ويتركون ما بعدها من الآيات التي تأمرهم بالإنابة إلى الله وإسلام الوجه

له لا للشهوات والأغراض، وتأمرهم باتباع الأحسن مما أنزل إليهم، وكلها فيها الختام بالتحذير والوعيد الشديد، فكيف ساغ لهم ذلك وكيف سمحوا لأنفسهم بهذا الموقف المشابه لموقف بني إسرائيل الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض؟

ومن المعوقات الإبليسية عن تحقيق الاستجابة لله أن الشياطين يملون على أوليائهم تفسيراً معكوساً لقوله تعالى في حق نبيه عليه الصلاة والسلام: (ولسوف يعطيك ربك فترضى) إن محمداً ﷺ لا يرضى بإدخال أمته النار، والله يعطيه ما يرضيه فيدخلهم الجنة. وهذا خلاف العدل الذي قامت به السموات والأرض والذي مدح الله به نفسه بأنه (قائماً بالقسط). فهل من القسط التسوية بين المسلمين والمجرمين؟ وبين المحسنين والمذنبين؟ والمصلحين والمفسدين؟ وهل يرضى رسول الله ﷺ من العصاة لله بأكلهم الربا وإفسادهم الأعراض، ومشابهتهم لإبليس في ترك الصلاة وغيرها؟

إن مرضاة رسول الله ﷺ مرتبطة برضوان الله، فلا يرضى إلا بمرضاة ربه، وإذا كان الله قد حكم بعقوبات العصاة في النار حتى يطهروا، وبعقوبات المشركين على اختلافهم بالتخليد في النار، فإن رسول الله ﷺ يرضى ولا يسعه إلا الرضى بذلك، وكيف لا يرضى وهو الوسيط بل يزداد رضاءً بإدخال الفاسق النار جزاءً على مخالفته ولا يشفع فيه إلا من بعد العقوبة التي تظهره حسب علم الله وإذنه له بالشفاعة.

فتفسير أعوان إبليس لهذه الآية مجرد افتراء على الله وصد للمسلمين عن الاستجابة لله.

فالاستجابة لله من ضروريات الدين ومن أقوى الأسباب لاستجابة الدعاء، وينبغي العلم بأن الدعاء من أهم مقامات العبودية، فلا يجوز التوجه به لغير الله من غائب أو ميت أبداً، فإن هذا شرك على ما قرره علماء السلف.

وقد ورد الحديث: (الدعاء مخ العبادة). ولا فرق بين ما يسمونه بالنداء والدعاء ليستبيحوا به دعاء الأموات، فإنه يتضمن الدعاء، ولا قيمة للنداء بلا طلب، فهم يطلبون من الموتى ما لا يقدرون عليه، بل يطلبون أحياناً ما لا يقدر عليه إلا الله، كجلب الرزق والشفاء، والإغاثة والنصر ونحو ذلك، ويزعمون لتبرئة ساحتهم من الإشراك أنهم وسائط بينهم وبين الله وشفعاء، وهذا كقول المشركين أعداء الرسل: (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى).

والدعاء من خصائص الألوهية، وقد بلغ بهم الاحتجاج على صحة شركهم إلى حد الحماقة والسفاهة حيث احتجوا لذلك بحديث (إذا انفلتت دابة أحدكم بأرض فلاة فلينادي: يا عباد الله احبسوا، يا عباد الله احبسوا، فإن لله حابس سيحبسه). وهذا في الحقيقة دعاء لأحياء من عباد الله الذين لا نبصرهم وهم يبصرون كالملائكة والجن وغيرهم من الأحياء القادرين السامعين، فليس فيه لهم أدنى حجة ولكنهم يتشبثون بالشبهات، وليس هذا موضع الرد عليهم بالتفاصيل، فقد تكفلت به كتب المناظرات من ردود الشيخ ابن تيمية ومن قبله ومن بعده إلى يومنا هذا، وإنما أردت الإشارة بالقليل.

والأدلة على أن الدعاء من أعظم مقامات العبودية وأهمها شيء كثير، منها قوله سبحانه وتعالى: (وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين)[1]. وقوله تعالى: (قل ما يعبؤ بكم ربي لولا دعاؤكم)[2]. وقوله: (ادعوا ربكم تضرعاً وخفية) وقوله: (فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم).

وعن النعمان بن بشير أن النبي ﷺ قال: (الدعاء هو العبادة). فقوله: (الدعاء هو العبادة) معناه أنه معظم العبادة وأفضل العبادة كقوله ﷺ: (الحج عرفة) يعني الوقوف بعرفة هو الركن الأعظم. فمن أبطل الدعاء أو استهان به فقد أنكر القرآن أو استهان بالقرآن.

والحكمة الإلهية تقتضي أن يكون العبد معلقاً بين الرجاء والخوف اللذين بهما تتم العبودية، وأن يحصل في الدعاء إظهار كمال العبودية بالذلة والانكسار والتضرع والرجوع إلى الله بالكلية مفوضاً مستسلماً.

ومن تأمل هذه الآية: (وإذا سألك عبادي عني فإني قريب) وجد أن الله لم يقل لمحمد عليه الصلاة والسلام فقل إني قريب – بل قال: (فإني قريب...) ليدل على تعظيم حال الدعاء من وجوه:

---

(١) سورة غافر، آية: ٦٠.

(٢) سورة الفرقان: آية: ٧٧.

(**أحدهما**) كأنه سبحانه يقول: عبدي أنت لا تحتاج إلى الواسطة إلا في طريق تحصيل الهداية فإنها من طريق رسلي وأما في مقام الدعاء فلا واسطة بيني وبينك، وفي هذا أعظم رد على المشركين ومن قلدهم من القبوريين.

(**ثانيها**) أن قوله: (وإذا سألك عبادي عني) يدل على أن العبد له وقوله: (فإني قريب...) يدل على أن الرب للعبد.

(**ثالثها**) أنه تعالى لم يقل: (فالعبد مني قريب) بل قال: (أنا منه قريب): وفيه سر نفيس وهو أن العبد مخلوق ممكن الوجود ومحتوم عليه بالفناء فلا يمكنه القرب من الرب. أما الرب سبحانه فهو القادر من أن يقرب من العبد بفضله ورحمته كما هو قريب منه بعلمه، بل هو أقرب إلى الإنسان من حبل وريده، فالقرب من الله لا من العبد، فيحصل من الله سبحانه للعبد قرب الفضل والرحمة إذا دعاه بعد تحقيق الإيمان والاستجابة، فإن رحمة الله قريبة من المحسنين، فلهذا قال تعالى: (فإني قريب).

(**رابعها**) أن الداعي ما دام خاطره منشغلاً بغير الله من المحبوبات والمعشوقات فإنه لا يكون في دعائه على الحالة التي يرضاها الله ويطلبها من العبد، فلا يحظى بالقرب حتى يستفرغ قلبه مما سوى الله ويكون الله غاية قصده في كل شيء حتى لا تحجبه الأغراض النفسية عن الله، فهذه الآية الكريمة: (وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع) هي من ركائز التوحيد ودعائمه، إذ فيها توجيه للسائل إلى تحقيق الإيمان بالاستجابة لله، وإذا حصل هذا اكتسب العبد بدعائه سكينة في نفسه وانشراحاً في صدره وصبراً يسهل عليه ما يلاقيه إذا لم يحظ بسرعة الإجابة. فكيف إذا حظي بها؟

وفسر ابن الأنباري قوله تعالى: (أجيب دعوة الداع) بمعنى أسمع لأن بين السماع والإجابة نوعاً من الملازمة، فلهذا يقام كل واحد منهما مقام الآخر، فقولنا سمع الله لمن حمده أي أجاب الله. فقوله: (أجيب دعوة الداع) أي أسمع تلك الدعوة. وبهذا يزول الإشكال في التساؤل عن سرعة الإجابة والمقصود من السماع هو القبول كما في معنى قوله (سمع الله لمن حمده) وذلك لأن المراد من الدعاء الإقبال على الله، والتوبة من الذنوب، وحصوله الضراعة المحبوبة إلى الله، وحصول التذلل والخشوع، فلهذا كان

عبادة، وكان تاركه مغضوباً عليه، وكانت إجابته محققة لا تتخلف إلا لسبب.

فعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: (دعوة المسلم لا ترد إلا لإحدى ثلاث: ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم، إما أن يعجل له في الدنيا، وإما أن يدخر له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء بقدر ما دعا). وهذا الحديث فيه تمام البيان عن حسن نتيجة الدعاء، ثم إن هذه الآية تنص على الكرم العظيم من الله سبحانه لعباده لأنه يجيب دعاءهم. مع غنائه عنهم، ففيها حض لهم واستنهاض لهممهم على طاعة الله والاستجابة العامة له حيث أنهم محتاجون إليه من جميع الوجوه.

فكيف يستجيب لهم مع غنائه عنهم وهم لا يستجيبون له مع شدة فقرهم وحاجتهم إليه.

أما تقديم الاستجابة على الإيمان في قوله تعالى: (فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي) فلأن الاستجابة عبارة عن الاستسلام والانقياد لله. أما الإيمان فهو من صفات القلوب وأعمالها من تحقيق حب الله ورسوله وتعظيمهما، والعبد لا يصل إلى نور الإيمان حتى يستعذب طاعة الله وعبادته ويأنس بها، والأعمال وحدها لا تجدي بدون إيمان يجعل صاحبه يحب الله ورسوله فوق كل شيء بل يجعلها أحب من نفسه وولده ووالده والناس أجمعين.

وبهذا يكون مسارعاً في مرضاة الله قاصراً محبته على ما يحبه الله ويرضاه فيكون محباً في الله موالياً في الله دون ما سواه من الأغراض النفسية والمطالب المادية، ولا يبغض إلا ما يبغضه الله من الأعمال أو الأشخاص دون الالتفات إلى العواطف والأغراض، فيبتعد عن كل ما يبغضه الله ويعاديه لله وفي الله ولو كان أقرب قريب وتكون قرة عينه في رعاية أمانة الله من حمل رسالته والدفع بها إلى الأمام، فهذا هو الإيمان الذي لو حظي به المسلمون لتغير واقعهم تغيراً محسوساً. وبالله التوفيق.

وروى مسلم عن أبي هريرة قال: كان النبي ﷺ يقول: (اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، والموت راحة لي من كل شر).

وعن عبدالله بن مسعود أن النبي ﷺ يقول: (اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى) رواه مسلم.

وعن عطاء بن السائب أن عماراً كان يدعو بدعوات سمعها من النبي ﷺ: (اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحيني ما علمت الحياة خيراً لي، وتوفني ما علمت الوفاة خيراً لي. اللهم وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الرضى والغضب، وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيماً لا ينفد، وقرة عين لا تنقطع، وأسألك الرضى بعد القضاء، وأسألك برد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم والشوق للقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة، اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين) رواه النسائي.

وروى الترمذي وأبو داود وابن ماجه عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ يدعو فيقول: (اللهم أعني ولا تعن علي، وانصرني ولا تنصر علي، وامكر لي ولا تمكر علي، واهدني ويسر الهدى لي، وانصرني على من بغى علي، اللهم اجعلني لك شاكراً، لك ذاكراً، لك راهباً، لك مطواعاً، لك مخبتاً، إليك أواهاً منيباً، رب تقبل توبتي، واغسل حوبتي، وأجب دعوتي، وثبت حجتي، وسدد لساني، وأسألك سنجمة صدري).

وعن أنس قال: كان أكثر دعاء النبي ﷺ: (ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) متفق عليه، وذلك لأنها جامعة لخصال الخير كلها.

واعلم أنه لا يجوز الاقتصار على الدعاء وترك الأسباب التي رتب عليها المسببات في الكون، فإن هذا معصية، كما لا يجوز الاعتماد عليها وترك الدعاء استغناء بها عن فضل الله ولكن يجمع بين هذا وهذا، فيأخذ لكل شيء سببه، ويسأل الله التوفيق، فإن حصل له ما يريده من فعل الأسباب لطلب الرزق أو الصحة أو النصرة فقد أعطاه الله من خزائنه الكونية التي يفيض منها على جميع متبعي سنته الكونية في الخلق، وإن بذل جهده ولم يظفر بمطلوبه أو كان عاجزاً عن تحصيل السبب الذي يعالج به النوائب، كالتاجر الذي ذكرنا قصته حين دهمه اللص الفاتك، فإنه يلجأ إلى الله مسبب الأسباب، ويطلب المعونة والتوفيق ممن بيده ملكوت السموات والأرض، وكل دابة هو آخذ بناصيتها، وهو سبحانه يجيب دعوة الداعي إذا خصه بالدعاء والتجأ إليه ضارعاً مستيقناً أنه لا ملجأ ولا منجا منه إلا إليه. وكم لله من عناية بالمتوجهين إليه مخلصين له رغباً ورهباً، قال تعالى: (أم من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء

الأرض؟ أإله مع الله قليلاً ما تذكرون؟)[1].

وليست مشروعية الدعاء بالنطق فقط، ولكنه بنطق اللسان وفزع القلب إلى الله وشعوره بعظيم الحاجة إلى معونته والالتجاء إليه. ولهذا كان تحقيق الإيمان بالله والاستجابة لجميع أوامره وتشريعاته من ضروريات إجابة الدعاء.

ومن لوازم الإيمان ومكملاته، الإكثار من ذكر الله والاستغفار وتلاوة القرآن بتدبر وخشوع. فقد روى الإمام مسلم عن أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ يسير في طريق مكة فمر على جبل يقال له جمدان، فقال: (سيروا، هذا جمدان، سبق المفردون، قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ قال: الذاكرون الله كثيراً والذاكرات).

وروى الترمذي والدارمي والبيهقي في شعب الإيمان قال: قال رسول الله ﷺ: (يقول الرب تبارك وتعالى: من شغله القرآن.

(نكتة لطيفة) تقدم سائل إلى بعض المشائخ الفضلاء قائلاً: (إذا كان الرزق مقدراً بقضاء الله فلأي شيء ندعو؟ فقال الشيخ: وإذا كانت إجابتي لك أو عدمها مقدرة بقضاء الله فلأي شيء تسأل؟).

وقوله سبحانه وتعالى: (لعلهم يرشدون) يعني يرشدون بالجمع بين الإيمان والإذعان لأوامر الله ونواهيه، لأنها جامعة لكل أسباب الخير والنجاح والفلاح في الدنيا والآخرة، فمن حققها حصل على الرشد، ومن لم يحققها كان محروماً من الرشد بقدر ما أضاعه منها. والرشد هنا ضد الغي والفساد، كما قال تعالى في شأن الفراعنة الكافرين ومن قلدهم من بعدهم أبد الآبدين: (وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً، وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً). وكما قال عن خليله إبراهيم: (ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين)[2].

فالرشد في هذه الآيات يقصد به صلاح جميع الأحوال السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية وغيرها من جميع شؤون الحياة، بخلاف الرشد الذي هو ضد السفاهة الموجبة للحجر على أموال السفهاء حتى يرشدوا، فإنه رشد مقصور على

---

(١) سورة النمل، آية ٦٢.

(٢) سورة الأنبياء: ٥١.

الأحوال الاقتصادية من إصلاح المال وحفظه عما لا فائدة فيه، قال تعالى لنبيه (فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم).

فالرشد والرشاد المقصود في هذه الآية وفي آية مؤمن آل فرعون: (يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد)[1] هو ضد الغي والفساد.

وبذلك يعلم أن الأعمال إذا لم تكن صادرة عن روح الإيمان لا يرجى الرشاد لصاحبها ولا الهداية الصحيحة، كمن يصوم اتباعاً للعادة وموافقة للبيئة أو المعاشرين، فإن الصيام لا يهيئه للتقوى ولا يعده للرشاد، وربما زاده فساداً في الأخلاق وضراوة في الشهوات، وكذلك المصلي ببدنه لا بقلبه، فإن صلاته لا تنهاه عن الفحشاء والمنكر من الطمع في الأموال والأعراض وأكل الربا والغش والغبن وإنفاق السلع بالإيمان الكاذبة وغير ذلك. ولهذا نجد الله سبحانه يذكرنا أثناء سرد الأحكام بأن الإيمان هو المقصود الأول في إصلاح النفوس، وأن الأعمال لا تحصل نتائجها الطيبة إلا إذا كانت مشربة بالإيمان والتقوى.

فحصول الرشد مربوط بعمارة الضمائر بتقوى الله واستشعار مشاهد يوم القيامة كما أسلفنا، وبها تزكو النفوس وتشرف أخلاق أصحابها، فإن الذي يوجه سلوك الأفراد والجماعات من صلاح أو فساد هو طهارة قلوبهم من رجس الشيطان وفتنة الاتجاه المادي أو عكسه، وبطهارة القلب من ذلك تتحقق في الإنسان معاني الإنسانية الكاملة التي لا تتحقق إلا بمكارم الأخلاق.

فجميع روافد الإيمان من تشريعات الإسلام كلها لبناء الإنسانية بالأخلاق الفاضلة التي تعدها للقيام بخلافة الله في الأرض خير قيام، ولقوة المصطفى ﷺ في تطبيق ذلك أثنى عليه الله بقوله: (وإنك لعلى خلق عظيم).

ففي التشريعات الإسلامية أساس متين لإرساء قواعد الحق والعدل وحفاظ قوي للحقوق والواجبات، وسياج منيع لروابط المحبة والإخاء، ومرجع استقامة للسلوك وصلاح الأمر كله.

والأمة إذا سادت فيها الأخلاق بقوة العقيدة ارتفع شأنها وعز سلطانها وكانت في

---

(١) سورة غافر: ٣٨.

تماسكها كالبنيان المرصوص، وبذلك يعلو شأنها ويرهب كيانها وتشق طريقها إلى الفتح والتقدم، لأن قوة العقيدة والأخلاق يحميانها في الداخل، ويجعلانها تستسهل الصعاب في الخارج، والعكس بالعكس.

كيفية الصوم وحدوده

قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾(١).

قال الأزهري: الرفث كلمة جامعة لكل ما يريد الرجل من امرأته.

وحقق الراغب أن الرفث كلام متضمن لما يستقبح من ذكر الوقاع ودواعيه، وجعل كناية في هذه الآية على جوازه. والرفث في غير هذه الآية هو الفحش في الكلام كما سيأتي، ويقصد به في هذه الآية الإفضاء إلى النساء بحاجات الرجال منهن، وهذا التعبير من عظيم أدب القرآن.

وقد وردت أخبار في سبب نزول هذه الآية قد توهم بعض الناس فيها التعارض، وليست بحمد الله متعارضة، لأنه اجتهاد من الصحابة ناشئ عن الإجمال المفروض في الصيام، فأتى الله ببيان في هذه الآية، وذلك أن الصحابة رضوان الله عليهم فهموا من قوله تعالى: (كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم) أن التشبيه يتناول كيفية الصوم، فحصل لبعضهم أن نام قبل أن يفطر ثم استيقظ فواصل صيامه إلى اليوم الثاني، وكان عاملاً، فأضره الصيام حتى غشي عليه، وبعضهم وقع على أهله في الليل وتحرج مما فعل، فارتفعت الشكاوى إلى رسول الله ﷺ، فأنزل الله هذه الآية التي ظن بعض المفسرين أنها ناسخة لقول الله تعالى: (كما كتب على الذين من قبلكم) وبعضهم قال: ليست ناسخة، وهو الصواب، لأنها مبينة للإجمال الذي فيها، وأن التشبيه ليس عاماً من كل الوجوه كما فهموه باجتهادهم وحصل عليهم الحرج، وإنما هو تشبيه منه تعالى في الفرضية لا في الكيفية، فكانت هذه الآية الكريمة مبينة لما امتاز به صومنا من الرخصة والتسهيل الذي لم يحظ به من قبلنا، وأن كيفية صومنا مغايرة لصوم

(١) سورة البقرة: ١٨٧.

من قبلنا. ففي هذه الآية تسهيل على المجتهدين من الصحابة بكيفية الصيام ممن سلكوا الأحوط في الشدة يرونه أقرب للتقوى، فجاءهم من الله اليسر الموعودين به.

وقد ذكر بعض المفسرين حديث قيس بن صرمة بكسر الصاد وما جرى من عمر بن الخطاب وكعب بن مالك في الحديث الآخر في أسباب النزول، وما أدى إليه اجتهادهم وخشيتهم لله حتى حصل لهم التيسير، فقوله تعالى: (أحل لكم) لا يقتضي أنه كان محرماً من قبل وإنما هو لدفع التوهم الذي أدى إليه مفهوم المجتهدين حيث لم يرد تنصيص على تحريمه قبل نزول هذه الآية وإقرار النبي ﷺ لهم هو جري على عادته في إقراره الاجتهاد بتفسير المجمل قبل أن يأتي بيانه، ويجوز أن يكون محرماً بسنة لم يصل إلينا خبرها الظاهر من السياق.

وقوله سبحانه وتعالى: (هن لباس لكم وأنتم لباس لهن) فيه تعليل واضح لرخصة المباشرة والقربان، فهو قول مستأنف ساقه الله لبيان سبب الحكم من كونهن لباس لكم وأنتم لباس لهن فسمى امتزاج كل واحد من الزوجين بصاحبه لباساً لانضمام الجسد وامتزاجهما وتلازمهما تشبيهاً بالثوب كما قال الشاعر:

إذا ما الضجيع ثني جيدها تداعت فكانت عليه لباسا

وقال أيضاً:

لبست أناساً فأفنيتهم وأفنيت بعد أناس أناسا

فكأنه سبحانه وتعالى يقول: إذا كانت بينكم وبينهن مثل هذه المخالطة والملابسة قلَّ صبركم عنهن وصعب عليكم اجتنابهن، فلذلك رخصت لكم في مباشرتهن. وقال بعضهم: يقال لما ستر الشيء وواراه لباس، فجائز أن يكون كل واحد منهما ستراً لصاحبه عما لا يحل، كما ورد الخبر: (من تزوج فقد أحرز ثلثي دينه).

وقال ابن زيد: هن لباس لكم وأنتم لباس لهن: يريد أن كل واحد منهما يستر صاحبه عند الوقاع عن أبصار الناس. وقيل وجه التشبيه أنه لما كان الرجل والمرأة يعتنقان فيضم كل واحد جسمه إلى جسم الآخر حتى يصير كل واحد منهما لصاحبه كالثوب الذي يلبسه، سمى كل واحد منهما لباساً.

وقال الربيع: هن فراش لكم وأنتم لحاف لهن. وقيل: بل جعلها لباساً للرجل من حيث أنه يخصها بنفسه كما يخص لباسه بنفسه ويراها أهلاً لأن يلاقي كل بدنه كل

بدنها كما يعمله في اللباس وهي كذلك، وقيل: يحتمل أن يكون المراد ستره بها عن جميع المفاسد التي تقع في البيت لو لم تكن المرأة حاضرة كما يستتر الإنسان بلباسه عما يضره أو ينظر إليه.

وقد نقلت أقرب الأقوال للصواب مما قيل في هذا التشبيه، وأقربها أن الملابسة المخالطة، فكل من الزوجين خالط الآخر وعرف دخائله فهو ملابس له، كما أن كلًا منهما ستر لصاحبه في الإحصان عن الوقوع في الفاحشة.

وقال الواحدي: إنما وحد اللباس بعد قوله (هن) لأنه يجري مجرى المصدر (وفعال) من مصادر فاعل وتأويله (هن ملابسات لكم)، وقوله سبحانه وتعالى: (علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم) يعني تظلمونها وتنقصونها حظها من الخير. فالاختيان من الخيانة، كالاكتساب من الكسب، فيه شدة وزيادة، ولم يقل (كنتم تختانون الله – كما قال – لا تخونوا الله) بل قال (كنتم تختانون أنفسكم) لقدم حصول القطع بالتحريم، فكان فعلهم عبارة عن عدم الوفاء بما هو خير للنفس، ولو حصل القطع بالتحريم فالخائن لله خائن لنفسه حيث يعرضها لعقوبات الله وسخطه، وقيل: المعنى أن الله يعلم أنه لو كان ذلك التكليف الشاق لوقعتم في الخيانة.

(أقول): وهذا حصوله بعيد من المؤمنين إلا في النادر، والمعنى مستقيم في التعبير بالخيانة، سواء كان التحريم حاصلاً أو تصوروه عن اجتهاد منهم كما مضى، فضيقوا على أنفسهم فهم عاصون، سواء كان بحسب اعتقادهم الاجتهادي أو بحسب الواقع، إنهم محتاجون إلى التوبة والتسهيل.

فلذا قال سبحانه وتعالى: (فتاب عليكم وعفا عنكم)، فإن كان ذنبهم بتحريم المباح عليهم في ليالي الصوم أو التورع منه لاعتقادهم مشابهة صيامهم لمن قبلهم في الكيفية فتفسر التوبة بالرخصة ويفسر العفو بالتسهيل والتخفيف، كما في قوله (عفوت لكم عن صدقة الخيل والرقيق) وقوله (آخر الوقت عفو الله). وإن كان ذنبهم اقتراف ما فهموا تحريمه ولابسوه فالتوبة على ظاهرها يعني أن الله قبل توبتكم لعلمه إخلاصكم ومراقبتكم له وعفا عن خيانتكم لأنفسكم، لأن العفو يحتمل العفو من الذنب ويحتمل الرخصة والتسهيل، والتوبة تحتمل معنيين: أحدهما قبول التوبة من المذنب التائب المنيب. وثانيهما: التخفيف بالرخصة كقوله تعالى: (علم أن لن تحصوه فتاب عليكم)

يعني خفف عنكم. وقوله: (لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار) وهم لم يحصل منهم ما يوجبها.

وقوله سبحانه وتعالى: (فالآن باشروهن) المباشرة هي التصاق البشرة بالبشرة أو ملامسة الشيء للشيء، وهي هنا كناية عن العمل الجنسي بين الزوجين، فهي كالملامسة حقيقة وكناية. وهذا التعبير من أدب القرآن ونزاهته.

والمعنى: فالآن باشروهن بعد ما جرى منكم من الاختيان لأنفسكم نتيجة تصوركم تحريمه. وهذا الأمر الصريح للإباحة النافية لما توهموه أو الناسخة للمنع على إحدى القولين، وهو من يسر الدين وسماحته رفقاً بالمكلفين.

وقوله سبحانه: (وابتغوا ما كتب الله لكم) يعني ليكن هدفكم من المباشرة هو المقاصد الشرعية التي شرعت لأجلها من إعفاف كل واحد لصاحبه وإحصانه، وقصد تكثير نسل أمة محمد ﷺ، لا لمحض الشهوة الجنسية التي يشارككم فيها البهائم، فإن التمتع باللذة إذا كان مصحوباً بتلك المقاصد حصل فيه الثواب على حسب صدق تلك النيات وقوتها، وإذا خلا من ذلك كان تمتعاً بهيمياً.

ولذا قال ﷺ في حديث الفقراء: (وفي بضع أحدكم صدقة) قالوا: يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟ قالوا: نعم. قال: فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر) رواه الإمام مسلم.

وهذا من جملة النصوص الموضحة موقف المسلم في جميع أحواله أن يكون عقائدياً حتى لا يلتقي فيها مع الكفار الذين تتساوى أهدافهم مع البهيمية في أغلب الأحوال، بل تكون جميع حركاته وسكناته مرتبطة بالله خادمة لدينه ليكون محفوظاً بألطاف الله، حائزاً على رضوانه ومثوبته، فالقرآن يوقظ شعور المؤمن نحو عقيدته والتزام مرضاة ربه في كل شيء حتى في اللذة الجنسية.

وتتضمن عبارة الآية النهي عن المباشرة المحرمة التي لا يقصد بها التناسل أو ليست محلاً للتناسل مما لم يكتبه الله كالزنى واللواط ولو في الزوجة كما سيأتي بحثه عند قوله تعالى: (فأتوا حرثكم) فإن المقصود الشرعي من التزاوج حصول الذرية وإعفاف نفسه ونفس زوجته عن الزنى بالاستغناء في الحلال.

ومما كتب الله علينا ابتغاءه في هذه الآية الاجتهاد في العبادة التماساً لليلة القدر

الشريفة التي من حرمها فقد حرم الخير، وأن لا ننشغل عنها بتلك اللذة، فإن ما كتبه الله لنا من التعفف بحلائل النساء وطلب الذرية يجب أن يكونا موصولين بالله لا مجرد شعور حيواني مقصور على الجسد ومنفصل عن المقصود الأسمى والأفق الأعلى الذي يتجه المسلم المؤمن إليه.

وقرأ الحسن البصري والحسن بن قرة (واتبعوا ما كتب الله لكم) من الاتباع، وجوزه ابن عباس مع ترجيحه القراءة المشهورة (وابتغوا) يعني اطلبوا الرخصة والتوسعة فيما كتب الله إباحته مع اعتبار المقاصد الحسنة فيه كما قدمنا.

وقوله سبحانه وتعالى: (وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر) فيه تحديد واضح قاطع لمدة الإفطار والتمتع بالمباح طيلة ما ينطبق عليه مسمى الليل حيث ضبط الله بحروف الغاية وهي (حتى وإلى) فحتى غاية للتبيين، ولا يصح أن يقع التبيين لأحد ويحرم عليه الأكل إلا وقد مضى لطلوع الفجر قدر يعرف به، ولذا جاءت الآثار التي مضى على العمل بها أهل الأمصار تحديد الفجر بالبياض المعترض بجنة ويسرة، وهو الفجر الصادق، بخلاف البياض الأفقي المستطيل، ففي حديث ابن مسعود إن الفجر ليس الذي يقول هكذا – وجمع أصابعه ثم نكسها إلى الأرض – ولكن الذي يقول هكذا – ووضع المسبحة على المسبحة ومد يديه. وورد عنه ﷺ أنه قال: هما فجران: فأما الذي كأنه ذنب السرحان فإنه لا يحل شيئاً ولا يحرمه، وأما المستطيل الذي عارض الأفق ففيه يحل الصلاة ويحرم الصيام. ورواه الدار قطني مرسلاً. والخيط في اللغة عبارة عن اللون. والفجر هو أول بياض النهار المستطيل المنتشر في الأفق من تباشير ضياء الشمس، وأصله الشيء المنفجر.

وأخرج البخاري عن عدي بن حاتم قال، قلت: يا رسول الله ما الخيط الأبيض من الخيط الأسود، أهما الخيطان؟ قال: إنك لعريض القفا إن أبصرت الخيطين. ثم قال: لا، بل هو سواد الليل وبياض النهار) وذلك لأن ما يبدو من البياض يرى ممتداً كالخيط، كما قال الشاعر:

الخيط الأبيض ضوء الصبح منفلق والخيط الأسود جنح الليل مكتوم

وقوله ﷺ لعدي: (إنك لعريض القفا) لفظة يكنى بها عن عدم الفطنة، وقد أورد البخاري حديث عائشة أن بلالاً كان يؤذن بليل، فقال النبي ﷺ: كلوا واشربوا حتى

يؤذن ابن أم مكتوم فإنه لا يؤذن حتى يطلع الفجر). قال البخاري: قال القاسم – ولم يكن بين أذانيهما إلا أن يرقى ذا وينزل ذا.

وذكر الحافظ في شرحه الروايات في معناه عند الإمام مسلم، وفي السنن الناطقة بأن أول النهار الذي يجب به الصيام الفجر الصادق. ثم قال: وذهب جماعة من الصحابة، وقال بن الأعمش من التابعين، وصاحبه أبو بكر بن عياش إلى جواز السحور إلى أن يطلع الفجر، فروى سعيد بن منصور عن أبي الأحوص عن عاصم عن زر عن حذيفة. قال: تسحرنا مع رسول الله ﷺ هو والله النهار غير أن الشمس لم تطلع وأخرجه الطحاوي من وجه آخر عن عاصم نحوه.

وروى ابن أبي شيبة وعبدالرزاق ذلك عن حذيفة من طرق صحيحة. وروى ابن المنذر هذا وغيره حتى روى عن أبي بكر أنه قال: لولا الشهرة لصليت الغداة ثم تسحرت قال إسحاق: هؤلاء رأوا جواز الأكل والصلاة بعد طلوع الفجر المعترض حتى يتبين بياض النهار. انتهى باختصار.

وهذا مبني على ما ذكرته سابقاً من حد الغاية بحرف (حتى) أنه لا يصح أن يقع التبيين لأحد ويحرم عليه الأكل إلا وقد مضى لطلوع الفجر قدر يعرف به، وينبغي أن يعلم أن انتشار ضوء الفجر لا يعرف في الليالي المقمرة ولا بالشوارع المستنيرة بأنوار الكهرباء وإنما يظهر انتشاره في الليالي المظلمة والأماكن الخالية من الأنوار، وحسبنا أن نعرف فسحة الله للصائمين فنخالف أهل التشدد والتنطع، وأن لا نعتبر ما يزاد في الحساب من الدقائق للاحتياط مما هو من مبالغة الخلف في تحديد الظواهر مع التفريط في إصلاح الباطن بالتقوى عكس ما عليه السلف الصالح، مع أن الرسول ﷺ يقول لأصحابه: إن بلالاً يؤذن بليل، فكلوا واشربوا حتى تسمعوا أذان ابن أم مكتوم، قال بعض رواته كان رجلاً أعمى لا يؤذن حتى يقال له أصبحت أصبحت رواه الشيخان وغيرهما.

وبما أن في الآية نص قاطع على تحديد وقت الأكل بغاية طلوع الفجر ثم إتمام الصيام إلى الليل، فعلى هذا من أكل أو شرب يظن عدم طلوع الفجر فصومه صحيح مهما بلغ به الشك، وذلك لاستصحاب حكم الليل وعدم تيقن طلوع الفجر الذي هو نهايته وغايته، وعلى العكس من أفطر قبل غروب الشمس يظنها قد غربت فإنه يبطل

صومه لأنه مطالب بإتمام الصيام إلى الليل الذي لا يبتدئ إلا بغروب الشمس فاستصحاب حكم النهار بالصوم واجب عليه حتى يتيقن دخول الليل الذي هو نهاية الصوم وغايته.

وفي الآية دليل على استحباب السحور وتأخيره كما أيدت السنة ذلك، كما أن في الآية دليل على عدم الحرج في الجنابة بعد طلوع الفجر، لأن لازم إباحة الجماع إلى الفجر يلزم منه ذلك ولازم الحق حق.

وفي قوله سبحانه وتعالى: (ثم أتموا الصيام إلى الليل) نص صريح على حد وقت الصيام ووجوب الإفطار، وأن الصائم يعتبر مفطراً حكماً عند دخول الليل حال غروب الشمس ولو لم يأكل شيئاً، وقد وردت السنة بتعجيل الفطور، كما وردت بتأخير السحور، والكل في أحاديث كثيرة أقتصر منها على ما رواه الإمام البخاري ومسلم وأبو داوود والترمذي عن عمر بن الخطاب قال قال رسول الله ﷺ: (إذا أقبل الليل وأدبر النهار وغابت الشمس فقد أفطر الصائم). وعلى ما رواه البخاري ومسلم ومالك والترمذي عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: (لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر). وأخرج في الموطأ عن مالك بن أنس أنه سمع عبدالكريم بن أبي المخارق يقول: (من عمل النبوة تعجيل الفطر والاستيناء بالسحور) مكتفياً بذلك عن سرد الأحاديث الكثيرة.

ويظهر من نص هذه الآية عدم جواز الوصال، أي مواصلة الليل مع النهار في الصيام. وقد تضافرت الأحاديث وتكاثرت على النهي عنه، لأن فيه مشابهة لأهل الكتاب، وانهاك للأبدان، وإضعاف للقوى، ومخالفة للظاهر، وتشديد مناف للدين.

وقد أخرج البخاري وغيره عشرات الأحاديث في النهي عنه أقتصر منها على ما رواه عن ابن عمر: أن النبي ﷺ نهى عن الوصال فقالوا: إنك تواصل. قال: إني لست كهيئتكم، إني أطعم وأسقى). وفي رواية أنس بن مالك: (إني أظل يطعمني ربي ويسقيني).

وقد حدث فيما بعد قوم من المؤمنين أجازوا الوصال معللين النهي بأنه يضعف الأمة عن الجهاد ويبغض ضعفاء الإيمان للدين، وأنه لما استحكم الإيمان في قلوبهم، ورسخ في صدورهم، وكثر المسلمون واعتزوا على أعدائهم، جاز الوصال لهم ليلزموا أنفسهم أعلى

المقامات، ولكن تعليلهم هذا ليس كافياً في تحريمه حتى تسوغ لهم إباحته بل هناك علة المشابهة للكفار، وعلة العسر والحرج والمشقة، كلها باقية وكلها منافية للدين.

ولا يجوز إبطال النصوص بالرأي. ثم إن هذا ليس مما فهم النهي عنه بالقياس لعلة دورية يدور الحكم فيه مع علته وجوداً وعدماً حتى يصح القول بإباحته، وإنما هو محرم بالنص القاطع المبين فيه العلة الفارقة بين النبي ﷺ وأمته، وهي أنه عليه الصلاة والسلام يطعمه ربه ويسقيه بخلاف أفراد الأمة.

وينبغي أن يعلم ضرورة استصحاب النية في الصيام طيلة النهار، كما أن تبييت النية قبل الفجر واجب، فإن العزم على الفطر أو التردد فيه مخل بالصوم، لأن الأعمال بالنيات، فاستصحاب حكمها واجب كبدايتها على الأرجح.

وقد سبق التنبيه على صحة صوم من طلع عليه الفجر وهو جنب، لأن الصوم لا يشترط له الطهارة، ولأن إباحة الجماع قبل الفجر تستلزم حصول الجنابة ولازم الحق حق، ولأنه وردت أحاديث كثيرة في ذلك نقتصر منها على ما رواه البخاري ومسلم والإمام مالك في الموطأ والترمذي والنسائي عن عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما قالتا: إن كان رسول الله ﷺ ليصبح جنباً من جماع غير احتلام في رمضان ثم يصوم). وما رواه مسلم عن عائشة أن رجلًا جاء إلى النبي ﷺ يستفتيه وهي تسمع من وراء الباب، قال: تدركني الصلاة وأنا جنب فأصوم: فقال رسول الله ﷺ: وأنا تدركني الصلاة وأنا جنب. فقال: لست مثلنا يا رسول الله، قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر. فقال: والله إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بما أتقى).

وقد تركت ستة عشر حديثاً للاختصار. ثم إن ههنا فوائد:

(**أحدهما**) تعدية الرفث بإلى في قوله (إلى نسائكم) ولم يقل مع نسائكم ونحوه. فقال الأخفش: إنما عدى الرفث بإلى لتضمنه معنى الإفضاء كما في قوله (وقد أفضى بعضكم إلى بعض).

(**الثانية**) أن الله جعل لوجوب الإمساك عن الطعام والشراب وقتاً واضحاً لا شبهة فيه، وهو طلوع الفجر الصادق الذي ينتشر فيه البياض من المشرق تباشيراً لطلوع الشمس، وهو ما عبر عنه الشاعر المتنبي بقوله:

وهبـــني قلـــت هـــذا الصـــبح ليـــل أيعمـــى العـــالمون عـــن الضـــياء؟

ولكن البشر تغلب عليهم طبائعهم حتى في مواطن العبادة، فمنهم من يتنطع ويشدد على نفسه بحجة الاحتياط، وبعضهم يغلب عليه التساهل في جميع الأمور وبعضهم يسلك الوسط بين الإفراط والتفريط فيسير على مقتضى الشريعة الغراء، فهذا هو سبب الاختلاف في تحديد ابتداء الصوم، هل هو الفجر الصادق أو انتشار البياض للناس بصفة أكثر، مع أن قواعد الدين مبنية على اليسر في معرفة التكليف وثبوته وحدوده وأنها وسط بين إفراط الغلاة المتشددين وبين تفريط المتساهلين المتميعين، وليس فيها شيء من العسر ولا الغموض بحمد الله.

فعلى المسلم سلوك الوسط ومراعاة القواعد بلا تشديد ولا تميع، وأن يحرص على الاتفاق مع إخوانه المجاورين له ببلده في العبادة دون إظهار خلاف، فإن الخلاف يحصل به العيب والازدراء والنفرة وزوال الثقة، إلى غير ذلك من موجبات الانحلال والتفكك في المجتمع فالفجر الصادق هو الذي يتضح به بياض النهار وفاصلاً من سواد الليل.

(**الثالثة**) من أكل أو شرب ناسياً فصومه صحيح، سواء كان الصوم فرضاً أو نفلاً، لقوله تعالى: (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا)[1] ولما رواه البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (من نسي وهو صائم فأكل أو شرب فليتم صومه فإنما أطعمه الله وسقاه).

ووردت أحاديث غير ذلك، لكن المالكية حملوا هذا على صوم النفل، وهذا تخصيص بلا مخصص، وتأويل بلا مسوغ، ويلزمهم من قولهم ببطلان الفرض أن يسقطوا الكفارة عمن جامع بعد أكله لكون صومه باطلاً، فلم يكن الجماع جناية على صوم باطل، وهذا في اللوازم الفاسدة التي تلزمهم على قولهم. أما على القول بنص الحديث وظاهره بعدم البطلان فالمجامع بعد الأكل عليه الكفارة لأنه جنى على صوم صحيح، وأما من جامع ناسياً ففيه ثلاثة أقوال عند الإمام أحمد وغيره:

(**أحـــدها**) لاقضاء عليه ولا كفارة لعموم الأدلة، وبه قال الشافعي وأبو حنيفة

---

(١) سورة البقرة: ٢٨٦.

والأكثرون.

(**ثانيها**) عليه القضاء بلا كفارة وهو قول مالك أيضاً، ويشكل على مذهبه.

(**ثالثها**) عليه الأمران ولكنه مخالف لظواهر النصوص الشرعية، فالأرجح هو القول الأول لموافقته النصوص، فإن من فعل محظوراً مخطئاً أو ناسياً فلا إثم عليه كما قال ﷺ: (عفي لأمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه).

وقد ذكرنا الفرق في الخطأ سابقاً لوجوب البقاء على الأصل واستصحاب الحال في وقت الحل والحرمة، مع أن الحديث الذي رواه البخاري عن أسماء بنت أبي بكر قالت: (أفطرنا يوماً من رمضان في غيم على عهد رسول الله ﷺ ثم طلعت الشمس) وهذا يدل على شيئين:

(**أحدهما**) أنه لا يستحب التأخير عند وجود الغيم حتى يتيقن الغروب فإنهم لم يفعلوا ذلك ولم يأمرهم به النبي ﷺ، مع أن الصحابة أعلم وأطوع لله ممن جاء بعدهم.

(**ثانيهما**) عدم وجوب القضاء لأنه لم ينقل عن النبي ﷺ أنه أمرهم به، وقد يرد الإشكال من كلام هشام بن عروة لما قيل له: أمروا بالقضاء؟ قال: أو بد من القضاء؟ لكن يقال إنه قال هذا برأيه، إذ لم يرد في الحديث ذكر للقضاء فإنه ليس عنده علم بذلك، كما روى معمر قال: سألت هشاماً فقال: لا أدري قضوا أم لا؟ كما ذكره البخاري عنه. وقد نقل هشام عن أبيه عروة أنهم لم يؤمروا بالقضاء.

وقوله تعالى: (ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد) هو استثناء من إباحة عموم المباشرة في الليل، كالاستدراك لحرمة الاعتكاف: والاعتكاف: لغة ملازمة المرء للشيء وحبس نفسه عليه حقاً كان أو باطلاً، ومنه قوله تعالى: (يعكفون على أصنام لهم – ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون). والاعتكاف الشرعي: هو الخلوة إلى الله بالمكث في المساجد تقرباً إليه، وهو من الشرائع القديمة، ولذا قال الله لخليله إبراهيم: (وطهر بيتي للطائفين والعاكفين). وقال الشاعر:

ظل بنات الليل حولي عكفاً عكوف البواكي بينهن صريع

ولما كان المعتكف ملازماً للعمل بطاعة الله لزمه هذا الاسم مدة اعتكافه، ولا يصح إلا في المسجد، وقد نهى الله المعتكف عن عموم المباشرة التي حقيقتها ملاقاة البشرتين،

سواء الجماع أو المداعبة والتقبيل، لئلا ينصرف قلب المعتكف عن الله إلى غيره من الشهوات المشغلة له عن إتمام قربته، فإن باشر بالجماع بطل اعتكافه وحبط أجره، وإن باشر بما دونه من غير إنزال لم يبطل، بل أتى بعمل مكروه ينقص من أجوره وحظوظه العالية، وهذا إذا قصد بها التلذذ، فأما الذي لا يقصد منه التلذذ، كملاحظة الشعر أو البدن من القمل وكحك الأوساخ أو ترجيل الشعر، فلا بأس به، لأن عائشة كانت ترجل شعر النبي ﷺ وهو معتكف.

وقوله تعالى: (تلك حدود الله فلا تقربوها) تلك إشارة إلى هذه الأوامر والنواهي من أول الكلام في الصيام وأحكامه وملابساته. (حدود الله) محدوداته التي قدرها بصفات مضبوطة ومقادير محدودة. وحد الشيء: مقطعه ومنتهاه.والحدود: الحواجز، وحد الدار: ما يمنع غيرها من الدخول فيها. وسمي الحديد حديداً لأنه يمنع من وصول السلاح إلى البدن. وحدود الله ما يمنع من مخالفتها. وسميت حدوداً لأنها تمنع أن يدخل فيها ما ليس منها وأن يخرج منها ما هو منها.

وقوله سبحانه: (فلا تقربوها) مبالغة في التحذير وإرشاد إلى الاحتياط فهو أبلغ من قوله في حدود الله بالطلاق (فلا تعتدوها) فنهى عن مجرد القرب لتكون منطقة أمان، لأن من قرب من الحد أوشك أن يعتديه، كما قال ﷺ: (كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه).

فالإنسان لا يملك نفسه في كل وقت، فقد تجر المداعبة إلى فعل ما يحرم فيفسد صومه أو اعتكافه، وقد يبالغ في المضمضة فيبتلع الماء، أو يباشر مباشرة خارجية فينزل، ونحو ذلك من مقاربة الحدود التي ينبغي الابتعاد عنها والتحفظ منها.

وقد حذرنا الله من قربان حدوده في آية الصيام هذه، وآية الزنى، وآية مال اليتيم، لما يترتب على القربان في هذه الأشياء من عظيم المفاسد وشناعة الجريمة، فاتقاؤها بعدم المقاربة أسلم، والنهي عن قربان حدود الله حسياً يشمل قربانها معنوياً بالتأويل والتحريف وإخضاع نصوصها للأهواء والآراء، بل ينبغي قبولها بمحض التسليم والاتباع.

وفي هذه الآية تخطئة لمن يعمل باجتهاده في أمر ديني يجب عليه فيه مراجعة نصوصه، كما فيها إشارة إلى سلوك الاحتياط اليسير في الإمساك والإفطار بدون تنطع، بشرط أن لا ينفرد باحتياطه عن جماعة المسلمين، وأن لا يعارض النصوص الواردة بتعجيل

الفطور وتأخير السحور، فإن مخالفة السنة لا تجوز باسم الاحتياط ولا غيره، ثم إن ههنا فوائد:

(**أحدها**) قال بعض الصحابة والتابعين وبعض العلماء في سائر القرون: لا يصح الاعتكاف إلا في المساجد التي بناها نبي، كالمسجد الحرام، ومسجد رسول الله ﷺ، والمسجد الأقصى، وقد احتج بعضهم بقوله تعالى: (وطهر بيتي للطائفين والعاكفين)، وبعضهم احتج بحديث: (لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد)، ولكن آية الصيام تبطل احتجاجهم مع قول الأكثرين بصحة الاعتكاف في كل مسجد. وقال بعضهم بتخصيص المسجد الذي تقام فيه الجمعة حتى لا يضطر للخروج منه إليها، والصحيح حمل الآية على عمومها في كل مسجد.

(**ثانيها**) أقل الاعتكاف يوماً وليلة، فلو نذر الاعتكاف ليلة لزمه اعتكاف يومها معها، وكذلك إن نذر اعتكاف يوم لزمه اعتكاف ليلته، وقال الشافعي وبعض الأئمة والعلماء: لا حد للاعتكاف فلا يقيد بيوم وليلة.

(**ثالثها**) قال بعضهم: لا يجوز الاعتكاف بغير صوم، والمشهور جوازه في كل حالة.

(**رابعها**) لا يجوز للمعتكف الخروج من معتكفه إلا لضرورة، كعلاج مرض ونحوه، ولقضاء الحاجة التي لا بد منها، فإذا خرج فليرجع عند انتهاء حاجته وزوال ضرورته وليبن على ما مضى من اعتكافه. ورخص بعضهم له عيادة المريض وشهود الجنازة. وبعضهم قيد الرخصة بالنفل لا بالاعتكاف الواجب. وبعضهم جوز له الاشتراط بالخروج من معتكفه للعيادة وقضاء الحوائج، وله الخروج لصلاة الجمعة، ومتى اجتمع واجبان أحدهما أوكد من الآخر قدم الآكد منهما.

(**خامسها**) يفسد الاعتكاف إذا أتى بمعصية كبيرة، لأن ترك ما حرم الله عليه أعلى منازل الاعتكاف، فإذا انتهكه انخرمت عبادته، ويندب الدخول في الاعتكاف بعد صلاة الفجر، والله أعلم.

(**سادسها**) الجماع يفسد الصوم ويوجب الكفارة، وهي عتق رقبة، فمن لم يجدها صام شهرين، فمن لم يستطع أطعم ستين مسكيناً، وفي الكفارة على المرأة المختارة خلاف أصحه عدم الوجوب، ومع الإكراه لا كفارة عليها قولاً واحداً، ولا تجب الكفارة بغير

الجماع أو الإنزال بالمساحقة.

(**سابعها**) من طلع الفجر عليه وهو مجامع فاستدام الجماع فعليه القضاء والكفارة في قول مالك والشافعي وأصح أقوال الحنابلة، لأنه ترك صوم رمضان بجماع أثم به لحرمة الصوم. وقال أبو حنيفة بوجوب القضاء دون الكفارة لأنه وطئ لم يصادف صوماً صحيحاً.

(**ثامنها**) النزع حين طلوع الفجر، قال بعضهم تجب الكفارة فيه، لأنه يتلذذ به كما يتلذذ بالإيلاج. وقال الأكثرون: ليس فيه كفارة لأنه ترك للجماع فلا يتعلق به شيء. وقال مالك يبطل صومه ولا كفارة عليه، لأنه لا يقدر على أكثر مما فعله في ترك الجماع فأشبه المكره، وهنا هو الصحيح ولا وجه لوجوب الكفارة عليه أبداً، بل عليه أن يمسك وصومه صحيح.

وهذه المسألة من مضحكات المعترضات، ولولا تدوينها في أشعار الفقهاء ومتونهم وشروحهم لما تعرضت لها بالذكر، ولكن قال الإمام الموفق في المغني: (وهذه المسألة تقرب من الاستحالة، إذ لا يكاد يعلم أول طلوع الفجر على وجه يتعقبه النزع من غير أن يكون قبله شيء من الجماع فلا حاجة إلى فرضها والكلام فيها).

وقوله سبحانه وتعالى: (كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون) معناه أن الله كما بين لكم أحكام الصيام وما قبله من مشروعية أكل الطيبات وتفصيل القصاص ومشروعية الوصية، وما أوضح لكم قبله من حقيقة التوحيد وكشف المخالفين له من المنافقين واليهود، وإيضاح ما قام به إبراهيم من الوفاء بالتكاليف المهمة التي جعله الله بها إماماً للناس، وفضيحة مفتريات اليهود والنصارى بزعمهم اتباعه والانتساب إليه، وهم أبعد الناس عن دينه الإسلامي،وما أقامه من الدلائل الواضحات على ألوهيته سبحانه وتعالى، إلى غير ذلك من تركيز العقيدة، فإنه سيبين آياته للناس.

والآيات هي العلامات الهادية إلى الحق مما شرعه الله لإصلاح قلوب الإنسانية وتوجيهها إلى الصراط السوي. يعني فكما بيَّن لكم في أوائل هذه السورة من أسراره في خلقه ومعالم دينه إلى فرضية الصيام بهذا البيان الواضح الوافي، فكذلك يبين الله آياته للناس (لعلهم يتقون) يعني أن المقصود الأعظم من تكاليف الدين وتشريعاته في وحيه

المبارك وإخباره عما جرى على الأمم من العقوبات، ليتقوا عذاب الدنيا والآخرة، باجتناب المعاصي، والكف عنها، وامتثال المأمور، والحرص على أدائه بوجه صحيح.

وهذا التعبير بالتقوى في ختام هذه الآية مشعر بأن المراد من تشريعات الإسلام هو التقوى من كل الوجوه، فإن في التزامها كبح لجماح النفس، وكسر لشهوتها، وقمع لأهوائها، وردع لها عن الأشر والبطر والفواحش، كما أن في التزامها ورعايتها احتقار وتهوين للذات الدنيا ورئاستها، وعلى الأخص في الصوم، فإنه يورث التقوى، لما فيه من انكسار الشهوة، وانقماع الهوى، ومغالبه الشهوات، ومجاهدة النفس على ترك مألوفاتها ومحبوباتها التي يتفانى الإنسان في تحصيلها، كما قيل في المثل السائر: (المرء يسعى لغاوية). فالصوم يسهل على أهله اتقاء الله بترك مألوفاتهم ومحبوباتهم الغالية، وإذا سهل عليهم اتقاء الله بذلك كان اتقاء الله بترك سائر الأشياء أخف وأسهل.

وقد جاء النص بحصول التقوى معدى بحرف (لعل) المفيدة الترجي، لأن الملتزم شرائع الله يقوى رجاؤه في التقوى لفعله أسبابها، فالتزام عبادته في الصوم وغيره من تنفيذ المأمور جامع لأسباب التقوى، ولهذا ختم الله آية الأمر بعبادته على الإطلاق بالتقوى في قوله: (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون).

وختم آيات القصاص بقوله: (لعلكم تتقون) وختم الآية الأولى من فرضية الصيام بذلك، ثم ختم موضوع الصيام بقوله (لعلهم يتقون).

فوائد من أحكام الصيام

(**أحدها**) من ذرعه القي بدون إرادة منه فصومه صحيح بخلاف من استقاء مختاراً فإن عليه القضاء وليس عليه كفارة على الأصح من الأقوال، لأنه لا يتقيأ إلا لحاجة صحيحة أو عفة نفسية، كما استقاء أبو بكر مما أكله من كسب المتكهن.

(**ثانيها**) الحجامة مفطرة للحاجم والمحجوم، كما وردت الأحاديث الكثيرة في ذلك عن النبي ﷺ، وهذا هو الصحيح الذي يجب العمل به وترك ما سواه، لأن القائلين بعدم الإفطار بها ليس عندهم ما يصح الاستدلال به قطعاً سوى حديث مطعون في زيادة فيه لمخالفتها الواقع وهو حديث: (احتجم رسول الله ﷺ وهم محرم صائم)، والصحيح الثابت أنه احتجم وهو محرم ليس بصائم.

وقد طعن الإمام أحمد وغيره من أئمة الحديث بهذه الزيادة وردوا هذا الحديث بسببها، وقالوا إن هذه الكلمة خطأ، وأنه ﷺ لم يكن صائماً، لاسيما وهو ينهي عن الصوم في السفر، وقد سمى الصائمين بالعصاة.

قال مهنا سألت أحمد عن حديث ابن عباس أن النبي ﷺ احتجم وهو محرم صائم) فقال: ليس فيه (صائم) إنما هو محرم – ذكره سفيان عن عمرو بن دينار عن طاووس عن ابن عباس (احتجم النبي ﷺ على رأسه وهو محرم). وعن طاووس وعطاء مثله عن ابن عباس.

وعن عبدالرزاق عن معمر عن ابن خيثم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس مثله أيضاً. وهؤلاء أصحاب ابن عباس لا يذكرون صائماً.

قال الشيخ ابن تيمية قلت: وهذا الذي ذكره الإمام أحمد هو الذي اتفق عليه الشيخان البخاري ومسلم، ولهذا أعرض مسلم عن الحديث الذي ذكر حجامة الصائم ولم يثبت إلا حجامة المحرم، وتأولوا أحاديث الحجامة بتأويلات ضعيفة، كقولهم كانا يغتابان، وقولهم أفطر لسبب آخر، وأجود ما قيل ما ذكره الشافعي وغيره أن هذا منسوخ، فإن هذا القول كان في رمضان واحتجامه وهو مرحم كان بعد ذلك، لأن الإحرام بعد رمضان.

وهذا أيضاً ضعيف، بل هو صلوات الله عليه أحرم سنة ست عام الحديبية بعمرة

في ذي القعدة، وأحرم من العام القابل بعمرة القضية في ذي القعدة، وأحرم من العام الثالث سنة الفتح من الجعرانة، وأحرم سنة عشر بحجة الوداع في ذي القعدة. فاحتجامه ﷺ وهو محرم صائم لم يبين في أي الإحرامات كان.والذي يقوى أن إحرامه الذي احتجم فيه كان قبل فتح مكة هو قوله (أفطر الحاجم والمحجوم) فإنه قال هذا عام الفتح بلا ريب. هكذا في أجود الأحاديث.

وروى أحمد بإسناده عن ثوبان أن رسول الله ﷺ أتى على رجل يحتجم في رمضان فقال: (أفطر الحاجم والمحجوم). وكذا ورد في حديث شداد بن أوس.

وهنا في الحديثين قال فيهما الترمذي سألت البخاري فقال: ليس في هذا الباب أصح من حديث شداد بن أوس وحديث ثوبان – إلى أن قال: ومما يقوي أن الناسخ هو الفطر بالحجامة أن ذلك رواه عنه خواص أصحابه الذين كانوا يباشرونه حضراً وسفراً ويطلعون على باطن أمره مثل بلال وعائشة ومثل أسامة وثوبان مولياه. ورواه عنه الأنصار الذين هم بطانته مثل رافع بن خديج وشداد بن أوس.

وفي مسند أحمد عن رافع بن خديج عنه ﷺ قال: أفطر الحاجم والمحجوم) قال أحمد: أصح شيء في هذا الباب حديث رافع.

وكلام الشيخ طويل في هذا فنكتفي بما ذكرنا. والعجب ممن اعتمد على حديث احتجامه ﷺ مع ما اتضح من كونه ليس في حال صيام على أنه لو صح أنه كان صائماً فإن حكاية الفعل لا تعارض النصوص القولية، بل تسقط حكاية الفعل ويبطل العمل بها الأمور ستة مبسوطة في الأصول، فكيف أغفلوها؟ حتى إن بعضهم لم يعتبر النصوص القولية ناسخة لحكاية الفعل التي فيها ما فيها، فلعل التقليد أوقفهم عن البحث رحمهم الله. وقد اتضح أنه لم يعتمر في رمضان، وحكاية الفعل يتطرق إليها من احتمال الخصوصية أو البقاء على أصل الإباحة والتمسك بالبراءة أو احتمال النسخ أو حصول الضرورة أو غير ذلك مما لا يتطرق إلى هذه الأحاديث التي تتضمن إعطاء حكم كلي وإظهار شرع عام فكان العمل بها أولى بل أوجب. وقد أطلت الكلام على هذا لأهميته.

وقد أوضح العلماء أن الفطر بالحجامة على وفق الأصول والقياس، فليس مخالفاً لها، بل هو من جنس الفطر بدم الحيض والاستمناء والتقيؤ عمداً، فإنه يفطر بأي وجه

أراد إخراج الدم، كما أنه يفطر بأي وجه أراد إخراج القيء، وبعض العلماء قال لا يفطر بالفصاد، وليس بصحيح، لأن الدم من أعظم المفطرات، فهو حرام في نفسه، لما فيه من طغيان الشهوة والخروج عن العدل، والصائم مأمور، بحسم مادته، فالدم يزيد الدم، فهو من جنس المحظور. وبعضهم قال يفطر المحجوم دون الحاجم، وهذا مخالفة للنص بسبب عدم فهم العلة، فالعلة هي أن الحاجم يجتذب الهواء الذي في القارورة بامتصاصه، والهواء يجتذب ما فيها من الدم، فربما صعد مع الهواء شيء من الدم ودخل في حلقه وهو لا يشعر أو يحصل امتزاج للهواء مع مقدماته، والحكمة إذا كانت خفية أو منتشرة غلق الحكم المظنة كالنائم الذي قد تخرج منه الريح وهو لا يدري يؤمر بالوضوء.

ثم ليعلم أن الصوم عبادة لا تتكرر، فينبغي الاحتراز فيه والتحفظ من كل ما فيه شبهة، فضلاً عما ورد النص بإبطال الصوم فيه، مع العلم أن بعض العلماء أوجبوا الكفارة في الحجامة وفي فعل كل مفطر، لأنه جناية على عبادة الصيام، لا فرق بينهما وبين الجماع، فليحذر من ذلك، وإن كان بعضهم قصر الكفارة على الجماع والإنزال بالمساحقة.

(**ثالثها**) من أفسد صومه بشيء من المفطرات عمداً ثم جامع، فبعضهم قال ليس عليه كفارة لجماعه في صوم فاسد، والأكثرون أوجبوا الكفارة، وغلظوا عليه، لأنه عصى مرتين بفطره وجماعه، ومذهبهم أصح المذاهب وأقومها، لأنهم لو لم يوجبوا الكفارة لفسحوا المجال لكل شهواني حيواني أن يفسد صومه بالأكل ونحوه ليجعله ذريعة إلى مقصوده، وكلما عظم الذنب وجب أن تكون العقوبة أبلغ وأفظع.

(**رابعها**) تكره المباشرة والتقبيل وتكرار النظر للشباب، ويباح للشيخ تقبيل المباح ونحوه، لكن من أمنى أو أمذى بذلك فسد صومه.

(**خامسها**) خروج الدم الذي لا يمكن الاحتراز منه، كدم المستحاضة والجروح، والذي يرعف لا يخل بالصوم، بخلاف دم الحيض والنفاس فإنه يفطر.

(**سادسها**) يكره ذوق الطعام لغير حاجة ولا يفطر بدون مبالغة، والكحل الذي يصل إلى الدماغ يفطر، كالطيب المستنشق عند الحنابلة والمالكية، أما عند أبي حنيفة

والشافعي فلا بأس به.

(**سابعها**) السواك ورد في فضله للصائم أحاديث لم يثبت منها شيء، ولكنه جائز بلا نزاع قبل الزوال، وأما بعده فقد قال بعضهم بكراهته، ولكن الشيخ ابن تيمية يقول: لم يقم على كراهيته دليل شرعي يصلح أن يخص عمومات النصوص، وقياسه على دم الشهيد ونحوه ضعيف.

(**ثامنها**) مشروعية المضمضة والاستنشاق حالة الصيام باتفاق العلماء، إلا أنه لا يبالغ فيهما كخارج الصيام، كما في حديث لقيط بن صبرة: (وبالغ في الاستنشاق إلا أن تكون صائماً)، فإن بالغ الصائم فيهما ووصل إلى حلقه شيء من الماء لم يضر صومه عند أحمد.

(**تاسعها**) لا يضر ما وصل إلى الجوف أو الحلق أو الدماغ من غير قصد، كالغبار والدخان والذباب ودخان الطيب إذا كان من غير استنشاق، وكذلك الكحل والإدهان في الخارج بما ليس من طبعه سرعة السريان كالنفط في البدن إذا تعمده الصائم قاصداً، وما عدا ذلك فليس بمحظور ولا بمفطر.

(**عاشرها**) مضغ العلك بلا إدخال ولا ابتلاع، وهو نوعان: نوع رديئ يتحلل في الفم، فهذا لا يجوز إلا أن لا يبتلع ريقه الذي تحلل فيه أجزاء منه، فإن ابتلع ريقه فقد أفطر، والنوع الثاني: ما كان قوياً لا يتحلل فيجوز.

(**حادي عشرها**) الحقنة ومداواة المأمومة وهي الشبحة في الرأس تصل إلى أم الدماغ، والجائفة وهي جراحة تصل إلى الجوف تكلم عليها بعض الفقهاء رحمهم الله فجعلوا دواءها من المفطرات بقياس يصعب إثباته لعدم وجود العلة ولوجود الفارق المفسد للقياس.

وقد أبطل الشيخ ابن تيمية قياسهم من وجوه كثيرة، وحقق عدم الإفطار بعلاج الجائفة والمأمومة، لأن الذي يصل إلى الدماغ أو الجوف ليس مغذياً ولا نافعاً للدم ولا يقصد به ذلك، وإنما هو علاج ضروري قد يرشح بعض أجزاء منه إلى ذلك. وقد كان المسلمون في عهد رسول الله ﷺ يجرح أحدهم في الجهاد أو في غيره جروحاً مأمومة أو جائفة ونحوهما مما يضطرون إلى علاجها، ولم ينقل عنه ﷺ خبر بمنعهم أو تنبيههم على

أنهم مفطرة لصومهم، فعلم إباحة علاجها على الإطلاق دون استثناء أو تحفظ، وكل ما تعم به البلوى لابد أن يبين الرسول حكمه بياناً عاماً شافياً، إذ تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز، وهو الناصح الأمين ﷺ، بيّن لأمته ما هو أخف من ذلك بكثير، بل بيّن لهم آداب قضاء الحاجة، فلو كان هذا مما يضر أمته في عبادتها لاستحال سكوته بدون بيان.

وأما الحقنة فقالوا: لا تفطر إذا كانت من طريق الإحليل، وتفطر إذا كانت من طريق الدبر. والشيخ ابن تيمية جعلها لا تفطر من كلا الطريقين.

وكلام الفقهاء أحوط، خصوصاً وأنه يوجد في هذا الزمان حقن غذائية توصل من الدبر إلى الأمعاء.

هذا وإني لم أنقل كلام الشيخ حرصاً على الاختصار من جهة، ولكونه مطبوعاً مشهوراً في رسالة خاصة بالصيام، وفي فتاويه المشهورة في المجلد الخامس والعشرين.

وفي هذا الزمان ظهر حقنات طبية تسمى بالإبرة، وقد يضطر الصائم إليها، وبعض العلماء قال بتحريمها والإفطار بها، وبعضهم جوزها وحكم بعدم الإفطار بها، وينبغي إمعان النظر فيها وفي مادتها، فهي نوعان: نوع يحقن من العضل (الورك) ونوع في الوريد (إبرة عرق). كما أن فيها ما يحمل التغذية للبدن، وفيها ما هو دواء صرف.

فعلى المفتي أولاً مراعاة الضرورة الداعية إليها، فإن كانت ضرورة ملحة لا تتحمل التأخير إلى بعد الغروب وكانت علاجاً صرفاً ساغ له الإفتاء بجوازها قياساً على علاج المأمومة والجائفة أو قياساً على الحقنة من الإحليل، وإن كان فيها غذاء ينتعش به البدن ويتغير بسببه جهاز الهضم ودورته فالأولى أن يسلك الاحتياط، وكذلك ما لا يضر تأخيره إلى الليل فليؤخر.

أما الحقنة من الوريد فلا شك في تأثيرها على المعدة وسائر الأجهزة الداخلية، فلا يجوز استعمالها نهاراً، لأن الصوم ينتهي عند الليل ولا يتكرر في السنة، فينبغي الاحتياط والتحفظ.

(**ثاني عشرها**) ليلة القدر ترجى في الأوتار من العشر الأواخر وأحراها ليلة السابع والعشرين أو الحادي والعشرين، وحظ الأمة من ليلة القدر أكمل من حظهم من ليلة

المعراج، بخلاف الرسول ﷺ فإن ليلة الإسراء والمعراج أفضل في حقه وأكمل حظاً. وقد غيب الله عنا علم ليلة القدر لنجتهد طيلة العشر في التهجد والقراءة والضراعة، ولا يجوز إحياء غيرها كليلة الإسراء أو النصف من شعبان، فإنه لم يرد فيها نص صحيح ولا حسن، بل هي بدعة.

(ثالث عشرها) يسن صوم التطوع وأفضله صوم يوم وإفطار يوم إذا لم يحصل فيه إرهاق أعصاب، ولا قعود عن واجب، ولا تعطل عن معيشة، ولا إضرار بنفس أو أهل أو مال، كما يسن صيام يوم الاثنين والخميس، وصيام أيام البيض من كل شهر، وصيام عشر ذي الحجة لغير الحاج وأفضلها يوم عرفة وهو كفارة سنتين، وصوم عاشوراء على تفصيل فيه، ويكره إفراد شهر رجب بالصوم، وكذا يوم الجمعة والسبت، إلا أن يوافق عادة مسنونة، ولم يرد حديث صحيح ولا حسن ولا ضعيف في أي عمل يعمل في شهر رجب سوى أحاديث منكرة مكذوبة باتفاق أهل النقل، ولم يعتمر ﷺ في رجب قطعاً وما نسب عنه فهو غلط بتحقيق أهل النقل، وكذا ليلة النصف من شعبان لم يرد فيها ما يعتمد عليه قطعاً ولا في ليلة المولد أو المعراج، فجميع ما يفعل فيهما بدعة لم يرد بها نص ولا فعل صحابي أو أحد من التابعين.

(رابع عشرها) وردت أخبار كثيرة مكذوبة في يوم عاشوراء من أنه اليوم الذي تاب الله فيه على آدم، وأنه يوم استواء السفينة على الجودي، ويوم رد يوسف على يعقوب، وإنجاء موسى وقومه من الغرق، ونجاة إبراهيم من النار، وفداء إسماعيل، وشفاء أيوب، وغير ذلك من الأكاذيب التي روجها المبتدعة المبطلون والجهال المقلدون، وقد وضعوا حديث التوسعة (من وسع على أهله يوم عاشوراء وسع الله عليه سائر السنة). وقد قرر علماء الحديث أنه مكذوب على رسول الله ﷺ.

وقد عزاه بعض نواصب الكوفة إلى رواية سفيان بن عيينة عن إبراهيم بن المنتشر عن أبيه، وإبراهيم كوفي، وأهل الكوفة كان فيهم طائفتان متناقضتان في المذهب: طائفة تزعم موالاة الحسين وأهل بيته رضي الله عنهم وتجعل يوم عاشوراء مأتماً للندب والنياحة وإنشاء قصائد الحزن وإعادة دعوى الجاهلية بأبشع مظهر، وعارض هؤلاء طائفة النواصب المتعصبين على الحسين وأهل بيته، وهم ما بين ضلال وجهال، قابلوا الكذب

بالكذب، والفاسد بالفاسد، والشر بالشر، والبدعة بالبدعة، فوضعوا الآثار في شعائر الفرح والسرور من مندوبية الكحل والخضاب والزينة وتوسيع النفقات وطبخ الأطعمة الخارجة عن العادة ونحوها من البدع.

ولم يسن رسول الله ﷺ ولا خلفاؤه الراشدون في يوم عاشورا شيئاً من هذه الأمور، لا شعائر الحزن والترح، ولا شعائر السرور والفرح، ولكنه ﷺ لما استقر بالمدينة وجد اليهود يصومون هذا اليوم، فقال لهم: ما هذا؟ فقالوا: هذا يوم نجى الله فيه موسى من الغرق فقال: نحن أحق بموسى من اليهود: فصامه وأمر بصيامه، وكذلك كانت قريش تعظمه في الجاهلية ويقال إن صومه كان مشروعاً على من قبلنا وإنه استمر صيامه حتى نسخ الله وجوبه بصوم رمضان.

وقال ابن تيمية: اليوم الذي أمر الناس بصيامه كان يوماً واحداً، فلما كان العام القابل فرض صوم رمضان فنسخ صيام عاشوراء، ثم في آخر عمره بلغه تعظيم اليهود له بإنجاء موسى فيه من الغرق، فقال: نحن أحق بموسى منهم، لئن أحياني الله لأصومن التاسع مع العاشر، وهذا لحرصه على مخالفة اليهود، ولا يشابههم في اتخاذه عيداً، وكان من الصحابة والعلماء من لا يصومه ولا يستحب صومه، بل يكره إفراده بالصوم، والصحيح استحباب صيامه.

قال ابن القيم في زاد المعاد: مراتب صومه ثلاثة، أكملها أن يصام قبله يوم وبعده يوم، ويلي ذلك أن يصام التاسع والعاشر، وعليه أكثر الأحاديث ويلي ذلك إفراد العاشر وحده بالصوم، وأما إفراد التاسع فمن نقص فهم الآثار.اهـ.

نعود إلى حديث التوسعة المكذوب فنقول: قد قال حرب الكرماني في مسائله: سئل أحمد بن حنبل عن هذا الحديث: (من وسع على أهله يوم عاشوراء) فلم يره شيئاً، قال ابن تيمية: وأعلى ما عندهم أثر يروى عن إبراهيم بن المنتشر، قال فيه سفيان بن عيينة: جربناه منذ ستين عاماً فوجدناه صحيحاً، وإبراهيم من أهل الكوفة، ولم يذكر ممن سمع هذا ولا عمن بلغه، فلعل الذي قال هذا من أهل البدع الذين يبغضون علياً وأصحابه ويريدون أن يقابلوا الشيعة بالكذب مقابلة البدعة بالبدعة.

وأما قول ابن عيينة فلا حجة فيه، فإن الله أنعم عليه برزقه، وليس في إنعام الله بذلك ما يدل على أن سبب ذلك هو التوسيع يوم عاشوراء، وقد وسع الله على من

هم أفضل الخلق من المهاجرين والأنصار، ولم يكونوا يقصدون أن يوسعوا على أهليهم يوم عاشورا بخصوصه. وهذا كما نرى كثيراً من الناس ينذرون نذراً لحاجة يطلبها فيقضي الله حاجته فيظن أن النذر كان هو السبب. اهـ بتصرف.

(قلت) كثيراً ما يوسع الله على الفسقة الذين لا يقيمون لعاشوراء وزناً كما لا يقيمون لغيره، ثم إن يوم عرفة ويوم النحر أفضل من عاشوراء باتفاق الأمة، ولم يرد نص بالتوسعة على الأهل فيهما، مع أن التوسعة فيهما أولى وأفضل، لكن لما لم يكن للمبتدعين حاجة نفس فيهما لم يختلقوا لهما حديثاً، ثم إن التوسعة مطلوبة من ولي الأسرة في كل وقت حسب إمكانه.فما معنى تخصيص عاشوراء على غيره في الأيام التي هي أفضل منه، بل حتى شهر رمضان الذي هو أفضل وأفضل لم يرد فيه تخصيص بالتوسعة.

(**خامس عشرها**) سئل الشيخ ابن تيمية عن عشر ذي الحجة والعشر الأواخر من رمضان أيهما أفضل؟ فأجاب: أيام عشر ذي الحجة أفضل من أيام العشر من رمضان. والليالي العشر من رمضان أفضل من ليالي عشر ذي الحجة.

قال ابن القيم: (وإذا تأمل الفاضل اللبيب هذا الجواب وجده شافياً كافياً فإنه ليس من أيام العمل فيها أحب إلى الله من أيام عشر ذي الحجة، وفيها يوم عرفة، ويوم النحر، ويوم التروية، وأما ليالي عشر رمضان فهي ليالي الإحياء التي كان رسول الله ﷺ يحييها كلها وفيها ليلة خير من ألف شهر، فمن أجاب بغير هذا التفصيل لم يمكنه أن يدلي بحجة صحيحة.

(**سادس عشرها**) كان رسول الله ﷺ يصوم أكثر شعبان لأنه يطعم ويسقى ليس كأمته كما نص على ذلك، فيكره صيام شعبان لأمته، لأنه يضعفهم عن صوم رمضان، ولكن صيام وسطه أيام البيض، أو صوم الاثنين والخميس لمن جعلها عادة، فهو مندوب ولا يضعف عن صيام رمضان.

(**سابع عشرها**) ذكر الشيخ ابن تيمية قاعدة مهمة في الدين فقال: (ومما ينبغي أن يعرف أن الله ليس رضاه أو محبته في مجرد عذاب النفس وحملها على المشاق حتى يكون العمل كلما كان أشق كان أفضل، كما يحسب كثير من الجهال أن الأجر على

قدر المشقة في كل شيء: لا: ولكن الأجر على قدر منفعة العمل ومصلحته وفائدته، وعلى قدر طاعة أمر الله ورسوله، فأي العملين كان أحسن وصاحبه كان أطوع وأتبع كان أفضل، فإن الأعمال لا تتفاضل بالكثرة وإنما تتفاضل بما يحصل في القلوب حال العمل، اهـ.

(**ثامن عشرها**) من أفطر في رمضان عامداً مستحلاً له بلا عذر مسوغ ولا جهل بالتحريم وجب قتله، والجاهل يعرف حتى يمثل، والفاسق التارك للصوم بلا جحود ولا استحلال يعاقبه الإمام أو نائبه حسب ما يراه من إصلاح حاله وفق اجتهاده، ومن زنى في رمضان يحده الإمام حد الزنى أو يقتله إن كان مستحلاً له.

(**تاسع عشرها**) الصيام عبادة لله وحده لا يجوز إيقاعه لغير الله، فمن صام لغير الله من أجل وطن أو انتصار لشخص أو قوم فهو مشرك شركاً إذا أصر عليه بعد تبليغه بحكم الله كان كافراً يجب على المسلمين أن يعاملوه معاملة الكفار. فصوم بعض الزعماء وغيرهم من أدعياء القومية والوطنية غضباً للوطن أو نصرة لمن يرونه وطنياً ونحو ذلك مما جلبته المذاهب الغربية هو شرك قد يؤدي إلى الكفر كما بيناه، فالصوم عبادة دينية محضة من حرفها لغير الله فقد خرج من الدين.

(**العشرون**) ما يفعله الجهال والمترفون من مشابهة النصارى والمجوس في أعيادهم أو مستقبل صيامهم أو نهايته من أنواع الطبخ أو الهدايا أو المراسيم والمهرجانات، فهو حرام، ومخالطتهم في أعيادهم تعتبر من شهود الزور الذي مدح الله المؤمنين بتركه. قال الضحاك في قوله تعالى: (والذين لا يشهدون الزور)، قال: عيد المشركين.

وروى بإسناده عن ابن سلام عن عمرو بن مرة. (والذين لا يشهدون الزور) لا يماكثون أهل الشرك على تركهم ولا يخالطونهم، وذلك منه ما هو مكروه، وما هو حرام، وما هو مخل بالعقيدة والعياذ بالله. فالطعام الذي يعمل في مستقبل صيامهم أو نهايته مكروه فعله من المسلمين، وإهداؤه لهم حرام لتشجيعهم، وأما مشاركتهم في أعيادهم ومخالطتهم بها فحرام لتشجيعهم على الباطل وترك التميز الواجب عنهم.

وأما قول القائل: المعبود واحد وإن كانت الطرق مختلفة، وغير ذلك من الأقوال والأفعال التي تتضمن أن الملة النصرانية ونحوها من ملل الكفر موصلة إلى الله، وقد ذم

الله أهلها وسماهم مفترين، وأما تضمن استحسان بعض ما فيها مما يخالف دين الله فهذا كفر بالله ورسوله وكتابه، إذ كيف يجعل دين النصارى ونحوه موصلاً إلى الله، والله يحكم بكفرهم ويأمرنا بقتالهم في قوله: (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم – لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة)؟.

ويقول في الآيات (٢٩ – ٣٢) من سورة التوبة: (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله – إلى قوله: المشركون).

ويقول في سورة طه: (تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً أن دعوا للرحمن ولداً وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً).

فكيف يجرؤ مسلم على استحسان شيء من دينهم الباطل أو يزعم أنه موصل إلى الله؟ هذا عين الكفر والضلال، وقد سبق في تفسير سورة الفاتحة أن سلوك الصراط المستقيم يقتضي مخالفة جميع أهل الكفر ومجانبتهم وعدم التشبه بهم أو الالتقاء معهم في أي شيء من شؤون الحياة، وإدخال السرور عليهم بمشاركتهم في أعيادهم والتبريك لهم حرام لتشجيعهم على باطلهم وانتقاصهم للمسلمين بهذه الميوعة.

وقد ورد الحديث الصحيح: (من تشبه بقوم فهو منهم).

وقد قال عمر لأبي موسى: لا أكرمهم إذ أهانهم الله، ولا أعزهم إذ أذلهم الله، ولا أدنيهم إذ أقصاهم الله).

ونص العلماء على كراهة أكل ما ذبحوه في أعيادهم كراهة تحريم أو تنزيه على قولين مشهورين.

وقد ذكر جمهور الأئمة أنه لا يحل للمسلمين أن يبيعوا للنصارى شيئاً من مصلحة عيدهم، لا لحماً ولا دماً ولا ثوباً، ولا يعارون ما يمتطون إليه في عيدهم، ولا يعاونون على شيء من دينهم، لأن ذلك من تعظيم شركهم وعونهم على كفرهم؛ فكما أن المسلم لا يحل له أن يعينهم على شرب الخمر بعصرها أو نحوها، فكيف يعينهم على ما هو من شعائر الكفر؟ وإذا كان لا يحل له أن يعينهم فكيف إذا كان هو الفاعل لذلك؟ فهذا كلام محققي العلماء في ذلك، فكيف بمؤاخاة النصارى ونحوهم باسم

الوطنية أو القومية، فمؤاخاتهم أو الدعوة لهما مناقضة لملة إبراهيم من الأساس.

(**الحادي والعشرون**) لا يجوز للزوجة صيام نفل بدون إذن زوجها، لأن واجب حقه في بدنها أولى من صيام التطوع، فيجب عليها الإفطار منه إذا أراد.

(وهنا فائدة) وهي أن المتطوع بفعل لا يجب عليه إتمامه إلا الحج فقط.

(**الثاني والعشرون**) ورد الترغيب بصوم ست من شوال لأنه يجبر ما حصل من الخلل في صيام رمضان، ولأن الحسنة بعشر أمثالها، فيكون المتابع لرمضان بها كمن صام الدهر. وقد وردت النصوص بذلك، لكن اختلف العلماء هل تصام متتابعات أو مفرقات، فالإمام مالك يرى تفريقها محاذراً من أن يبتدع الجهال والمتنطعون عيداً ثانياً بعد اختتامها. وقد صدقت فراسته رحمه الله، فاتخذوا عيداً سموه عيد الأبرار، فماذا يكون عيد الفطر؟.

(**الثالث والعشرون**) شرع الله صدقة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث، وهذا مبني على أن فلاح العبد متوقف على زكاة نفسه وطهارتها بما شرع الله من صلاح الأقوال والأعمال، وزكاة الفطر من بينها، فهي إذن مؤهلة للمؤمن لأن ينال الفلاح، فصدقة الفطر فضلها عظيم، وقد قال بعض المفسرين إنها المقصودة من قول الله تعالى: (قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى). فأناط الفلاح بها وبصلاة العيد، فهي واجبة على كل عين من أعيان المسلمين صغاراً وكباراً تزكية لنفوسهم جميعاً، وتوسعة على الفقراء في العيد، صيانة لكرامتهم وحفظاً لعزتهم من ذل السؤال أو حصول البؤس بالجوع، وليكون المجتمع الإسلامي سعيداً مرحوماً.

وقد روى الإمام مالك في الموطأ والشيخان في صحيحيهما عن ابن عمر: قال: (فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر من رمضان صاعاً من تمر أو صاعاً من شعير على العبد والحر والذكر والأنثى والصغير والكبير من المسلمين). وروى الشيخان عن أبي سعيد الخدري: كنا نخرج زكاة الفطر صاعاً من طعام (بر) أو صاعاً من شعير أو صاعاً من تمر أو صاعاً من أقط أو صاعاً من زبيب).

وعند بعض العلماء يجوز الإطعام من غالب قوت البلد. وبعضهم يرى إخراج القيمة، وبعضهم يرى الاقتصار على هذه الأصناف الخمسة التزاماً لنص الحديث. وهو

رأي جميل سديد، ولكن من نظر إلى واقع الفقراء وكونهم يبيعون التمر ونحوه بأقل من نصف قيمته، فيقل انتفاعهم بما شرعه الله لهم، فإنه يرى إخراج القيمة أحظ للفقراء وأقوم لأداء هذه الشعيرة.

(**الرابع والعشرون**) قضاء رمضان للمفطر بعذر ينبغي أن لا يتساهل في تأخيره اغتناماً لفرصة صحته وقوته، فإن أخره إلى شعبان تحتم عليه الإسراع بالقضاء بقدر ما عليه، ومن لم يزل عذره حتى وافاه رمضان آخر فالواجب في حقه الإطعام والله أعلم.

فهذه جملة ميسرة من حكم الصيام وأحكامه ضمنتها هذا التفسير والحمدلله...

فهرس الموضوعات

معنى الصوم ٥
الصوم تربية ومدرسة..... ١٣
صوم المريض والمسافر – وصوم عاشوراء ٣٠
رمضان والقرآن..... ٤٠
يريد الله بكم اليسر..... ٦٨
الصيام الصحيح فرصة لاستجابة الدعاء..... ٧٢
كيفية الصوم وحدوده ٩٧
فوائد من أحكام الصيام ١١١
فهرس الموضوعات..... ١٢٣